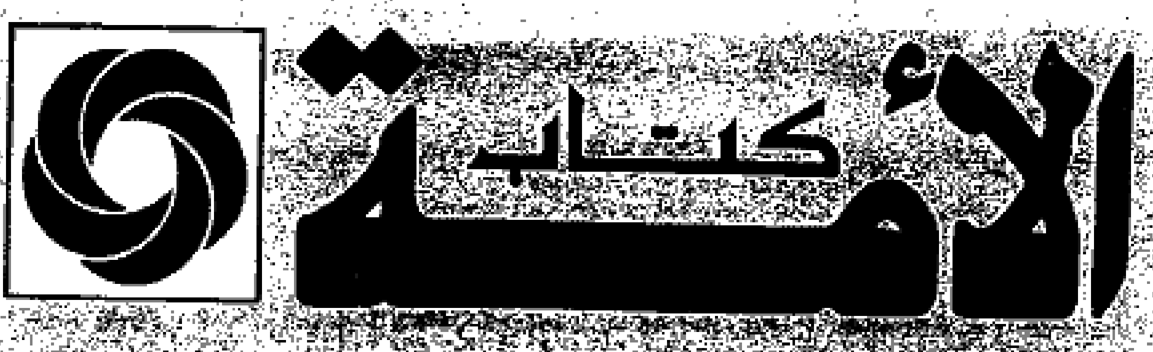


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد: ٥١ المحرم ١٤١٧هـ السنة السادسة عشرة

عمرو بن العاص

(رضي الله عنه)

القائد المسلم - والسفير الأمين

الجزء الأول


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

عمرو بن العاص

(رضي الله عنه)

القائد المسلم ـ والسفير الأمين

الجزء الأول

الطبعة الأولى

المحرم ١٤١٧هـ

أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٩٩٦م

٩٥٣,٠٢
محمود شيت خطاب
عمرو بن العاص القائد والسفير الأمين / محمود شيت خطاب .ـ
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ، ١٩٩٦ .
١٩٢ص ، ٢٤ سم
إيداع : ٢٧٤ / ١٩٩٦
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ ـ ٤٠ ـ ٢٣ ـ ٩٩٩٢١
أ . العنوان

ما ينشـــر في هـــذه السلسلـــة يعبـــر عن رأي مؤلفيهـــا



صـــدر منـــه :

- **مشكلات في طريق الحياة الإسلامية**

« طبعة ثالثة » - الشيـــخ محمـــد الغـــزالـــي

- **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**

« طبعة ثالثة » - الدكتـــور يوسـف القرضــــاوي

- **العسكـريـة العـربيـة الإسلاميـة**

« طبعة ثالثة » - اللــواء الركن محمود شيت خطاب

- **حـول إعـادة تشكيـل العقـل المسلم**

« طبعة ثالثة » - الدكتــور عمـــاد الدين خليل

- **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتـــور محمـود حمدي زقزوق

- **المذهبيـة الإسلاميـة والتغييـر الحضاري**

« طبعة ثالثة » - الدكتـــور محسن عبد الحميـد

- **الحـرمـان والتخلف في ديـار المسـلمين**

« طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية » الدكتور نبيل صبحي الطويل

- **نظـرات في مسيـرة العمـل الإسـلامي**

« طبعة ثانية » - الأستـــاذ عمـر عبيـد حسنـه

- **أدب الاختـــلاف فـي الإســـلام**

« طبعة ثانية » - الدكتـــور طه جابر فياض العلواني

- **التـــــراث والمـــعـــاصـــــرة**

« طبعة ثانية » ـ الدكتـــور أكـرم ضيــــاء العمـــري

- **مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي**

« طبعة ثانية » ـ الدكتـــــور عبـــاس محجوب

- **المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل**

« طبعة أولى » ـ الأستـاذ عبد القـــادر محمـد سيـلا

- **البنــــوك الإســلاميـــــة**

« طبعة أولى » ـ الدكتـــور جمــال الدين عطيـــــة

- **مدخـــل إلـى الأدب الإســلامــي**

« طبعة أولى » ـ الدكتـــور نجيــب الكيـــــلاني

- **المخــدرات مـــن القـلـق إلـى الاستعباد**

« طبعة أولى » ـ الدكتـــور محمـد محمـود الهـواري

- **الفـكـر المنهجـــي عنـــد المحــدثين**

« طبعة أولى » ـ الدكتـــور همــام عبـد الرحيـم سعيـد

- **فقـه الدعـوة ملامـح وآفــاق في حوار**

الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- **قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**

« طبعة أولى » ـ الدكـــتور زغلــول راغـــب النجـــار

- **دراســـة فـــي البنـــاء الحضـــاري**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد مسفر

- **في فـقه التـدين فـهمـاً وتـنزيـلاً**

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- **في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- **النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة**

«طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد احمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور احمد محمد كنعان

- **المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- **مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها**

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- **الصحـــوة الإسلاميــة فــي الأنــدلس**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور علي المنتصر الكتاني

- **اليهـــود والتحـــالف مـــع الأقويـــاء**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- **الصياغــة الإسلاميــة لعلــم الاجتماع**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الأستاذ منصور زويد المطيري

- **النــظـــم التعليميــة عنـــد المحـدثين**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الأستاذ المكي اقلاينة

- **العـقـــل العربـي وإعـادة التـشـكيـل**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور عبد الرحمن الطريري

- **إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- **أســبـــاب ورود الحــديـــث**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور محمد رافت سعيد

- **فـي الغـــــزو الفـــكـري**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور احمد عبد الرحيم السايح

- **قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي**

الجزء الاول والثاني ، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر . الدكتور اكرم ضياء العمري

- **فقه تغيير المنكر**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- **في شرف العربية**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور إبراهيم السامرائي

- **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**

، طبعة اولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- **الإسلام وصراع الحضارات**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور احمد القديدي

- **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عماد الدين خليل

- **المستقبل للإسلام**

، طبعة اولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور احمد علي الإمام

- **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**

الجزء الأول والثاني ، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ فريد الأنصاري

- **الإسلام وهموم الناس**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ احمد عبادي

- **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**

، طبعة أولى ، + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد الحليم عويس

قال تعالىٰ :

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (سورة التوبة)

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، الذي أرسله الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضي الله عن قادة الفتح الإسلامي، وجنوده، وعن قادة الفكر الإسلامي، وجنوده، وعلى كل من خدم المسلمين، ويخدمهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا كتاب، عن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قائداً من قادة النبي ﷺ، وسفيراً من سفرائه، وصحابياً كريماً، قدوة للمسلمين، تفيد في دراسة مزاياه القادة، والسفراء، وطلاب الدراسات العليا في الكليات والجامعات العسكرية، فقد مضى على الطلاب العسكريين وقت، يدرسون فيه سيرة النبي ﷺ، تحت عنوان: «حرب فلسطين»، ومن معه تحت عنوان: «حرب العراق»، فيتخرج الطلاب، وهم يرون من استعمر بلادهم قدوة لهم، وليس في مزاياهم غير مزايا المستعمر المغتصب، وجاء الوقت والحمد لله، لنقتدي بقادتنا العرب المسلمين، الذين يتميزون بمزايا تعتبر قدوة لنا، في حاضرنا ومستقبلنا، بجدارة واعتبار.

وقد سجّلتُ سيرة عمرو بن العاص، معتمداً على المصادر العربية الإسلامية، فتلك المصادر أحق بالاقتباس منها، فقد صوّر المؤلفون الأجانب قادتَنَا، كما تصوروهم، لا كما هم حقًا، فوقعوا في أخطاء جسيمة، قصداً أو جهلاً، ولكنها على كل حال أخطاء يجب الانتباه إليها، وعدم تصديقها.. أقول ذلك لأنني رأيت من المؤرخين في الجامعات العربية، من يعتبر آراء الأجانب هي الأصل، والمصادر العربية الإسلامية هي الفرع! والواقع، يجب أن يكون تاريخنا العربي الإسلامي هو الأصل، ومصادر الأجانب هي الفرع.

ولا أطالب العربَ والمسلمين بالابتعاد عن المصادر الأجنبية، بل أطالبهم بالدعوة لعدم تصديق كل ما ورد فيها، وعدم الانبهار بها وتصديق كل ما جاء فيها، بدون تدقيق وتمحيص، لأن المصادر الأجنبية كثيراً ما تدسّ في مؤلفاتها عن العرب والمسلمين.

وكمثال على الدس الأجنبي في مصادرهم حول عمرو بن العاص، ما جاء في كتاب فتح العرب لمصر، عن حديث إسلام عمرو أنه قال: «...وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه، إجلالاً له؛ ولو سئلت أن أصفه ما أطقتُ، لأنني لم أكن أملأ عيني منه..»[1]، وقد فهم بتلر، في كتاب فتح العرب لمصر، حديث عمرو، أن النبي ﷺ لا يطيق النظر إلى وجه عمرو، وليس عمرو هو الذي لا يطيق النظر إلى وجه النبي ﷺ حياءً

(١) رواه مسلم، انظر شرح النووي على مسلم،١/١٩٦، وطبقات ابن سعد، ٤/ ٩٠.

منه، وهكذا، عَكَسَ بتلر المعنى، فقَلَب الواقع رأساً على عقب[1].

إن المصادر العربية الإسلامية، هي القادرة على وصف رجالات العرب والمسلمين، فيجب أن نعتمدها، ولا نعتمد المصادر الأجنبية، التي قد تضلّ عن فهم رجالات العرب والمسلمين، ضلالاً بعيداً، وقد تكون فيها أخطار ودسّ، خاصة فيما يخص الدين الإسلامي، واللغة العربية.

كما تؤدي دراسة وقائع الجنرالات الأجانب مثل اللّنبي، وغورو وغيرهم، وهم الذين احتلوا بلاد العرب والمسلمين، تؤدي إلى انهيار معنويات جيوش العرب المسلمين.. ولا قيمة لجيوش منهارة المعنويات.

فما هي المعنويات؟

فإن كان تعريف المعنويات، قبل الحرب العالمية الثانية، بأنها: الصفات التي تميز الجيش المدرب النفاد، إلى أسس الضبط[2]، عن العصابات المسلحة، وتتجلى بهذه الصفات، الطاعة القائمة على الحب، وتظهر الصبر على المشاقّ، وتبدي كل المزايا، التي تجعل العسكري مطيعاً، باسلاً، صبوراً[3]، فهذا التعريف يشمل الجيش وحده، لأن الحروب كانت حروب جيوش، لا حروب أمم.

أما تعريف المعنويات اليوم فهو: القوى الكامنة في صلب

---

(١) فتح العرب لمصر، عربه محمد فريد أبو حديد (القاهرة -١٣٥١هـ).

(٢) الضبط: الطاعة، ويطلق عليه في قسم من الجيوش العربية: الانضباط.

(٣) الجغرافية العسكرية، ١/١٨، طه الهاشمي، بغداد ١٩٢٤.

الإنسان، التي تكسبه القابلية على الاستمرار على العمل، والتفكير بحزم وشجاعة، مهما اختلفت الظروف المحيطة به.. وهذا التعريف يشمل الشعب كله، لا الجيش وحده.

وإذا أردنا إيضاح هذا التعريف وتبسيطه، فيمكن القول: بأن الفرد في الشعب يجب أن يكون شجاعًا لا يَجْبُنُ، قويًا لا يَضْعُفُ، عزيزًا لا يَهُونُ، ثابتًا لا يَتَرَاجَعُ، صابرًا لا يَيْأَسُ، متفائلاً لا يَقْنَطُ، مستعداً للتضحية بماله، وروحه، في سبيل مُثله العليا.

والذي يغرس المعنويات ويرفعها هما: العقيدة والقيادة(١).

قُبيل معركة اليرموك الحاسمة، بين العرب المسلمين والروم، في العام الثالث عشر من الهجرة(٢) (٦٣٤م)، قال رجل من المسلمين لخالد ابن الوليد: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين...»، فقال خالد: «ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقلّ بالخذلان»(٣).

ومعنى ذلك أن الجيش ليس بعَدَدِه وعُدَدِه، بقدر ما هو بمعنوياته.. فالجيش الذي لا يتحلّى بالمعنويات العالية، لا قيمة له في الحرب، والفئة القليلة ذات المعنويات العالية، تغلب الفئة الكثيرة ذات المعنويات المنهارة.

---

(١) انظر التفاصيل في بحث المعنويات في كتابنا: الإسلام والنصر، ١٥/٢٩، ط٢، دار قتيبة، ١٩٨٥، دمشق.

(٢) ابن الأثير (١٥٧/٢).

(٣) الطبري (٥٩٤/٢).

وقد كان نابليون بونابارت يقول: «قيمة المعنويات بالنسبة للقوى المادية تساوي ثلاثة على واحد»، أي أن الجيش تكون قيمته ٧٥٪ للمعنويات و٢٥٪ للماديات.

وقد أيّد نابليون في مقولته هذه كبار القادة العسكريين في الماضي، والكثير من القادة العسكريين في الوقت الحاضر، غير أن اللواء فولار في كتابه: (الأسلحة والتاريخ)، يخالف هذا الرأي، نظراً لاختراع الأسلحة النووية، والهيدروجينية، والتحسينات الهائلة التي طرأت على وسائط قذف هذه الأسلحة، وعلى أساليب استعمالها.

وليس هناك شك، في أن الأسلحة الحديثة ذات تأثير، في الناحية المادية للجيوش الحديثة، جعلت نسبة هذه الناحية بالنسبة للناحية المعنوية (٥٠٪) لكل من المادية والمعنوي، أي أن الناحية المعنوية لا تزال ذات قيمة عظيمة، حتى بعد ظهور الأسلحة الحديثة، وأن المعنويات كانت، ولا تزال، وستبقي، عاملاً حاسماً، من عوامل النصر في الحرب.

فما هي عوامل رفع المعنويات؟

أ ـ الدِّين: فعامل الدين، من أهم عوامل رفع المعنويات في الشعب، ولا أعرف ديناً يرفع المعنويات، كما يرفعها الدين الإسلامي الحنيف، ودراسة التاريخ الإسلامي، شاهد على رفع معنويات العرب بعد إسلامهم، ففتحوا أرجاء العالم في سنين معدودات.

ب ـ القيادة: فالقائد المنتصر، يرفع معنويات رجاله.

وهذه سيرة أحد قادة العرب المسلمين، وهو: من قادة النبي ﷺ، ومن سفرائه، ومن قادة الفتح الإسلامي، فتح شطر أرض الشام، ومصر، وليبيا، وسيرته هذه تبرز مزاياه، كما هو في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، لا كما تصوره الأجانب.

وسيرته، وسير قادة الفتح الإسلامي العظيم، أحرىٰ بأخذ الدروس والعِبر منها، فهي منّا ولنا، ولا صلة لنا بقادة الأجانب؛ خاصة أولئك الذين استعمروا بلادنا، فهم أحق بالمقت والإهمال، لا بالدروس والعبر.

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله، سيد القادات، وقائد السادات، رجل الرجال، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيراً.

أدعو الله أن تفيد هذه الدراسة أولادنا العسكريين، في المعاهد والكليات العسكرية، وكل العسكريين من المبهورين بالمصادر الأجنبية، وبالقادة الأجانب، فتلك المصادر هي غزو فكري، هو أخطر من الاستعمار العسكري والاقتصادي.

أدعو الله العلي القدير أن يطهّر عقول المسلمين من أدوات الاستعمار الفكري، الذي هو أخطر أنواع الاستعمار.

والحمد لله رب العالمين

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

عمرو بن العاص .. القُرشي السَّهْمي

«أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»

حديث شريف(*)

أهله وقومه

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سُعَيد بن سَهْم بن عمرو ابن هُصَيْص بن كَعْب بن لُؤَي بن غالب[1] بن فِهْر بن مالك بن النَّضر ابن كِنَانة بن خُزَيْمة، وفِهْر بن مالك بن النضر هو قريش، ومن لم يَلد فِهْرٌ فليس من قريش[2].

أبو عمرو هو العاص بن وائل، أحد أشراف قريش في الجاهلية، وقائد بني سَهْم من قُريش في حرب الفِجَار الثاني، قبل بعثة النبي ﷺ، وكان يوم الفِجَار الثاني، بعد عام الفيل بعشرين سنة[3] (٥٩١م).

(*) رواه الإمام أحمد والترمذي.

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧)، والإصابة (٢/٥)، وأسد الغابة (١١٥/٤)، والاستيعاب (١١٨٤/٣) وانظر جمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٢) نسب قريش (١٠-١٢).

(٣) ابن الأثير (٥٨٩/١-٥٩٢)، وكان عام الفيل سنة (٥٧١) ميلادية.

وقد أدرك الإسلام، ولكنه لم يُسْلم، إذ مات بمكة المكرمة في السنة الأولى من الهجرة[١]، وكان أحد سادات قريش الذين مشوا إلى أبي طـالب، يسألونه أن يكف عنهم رسـول الله ﷺ، فقال لهـم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردَّهم ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه: يُظهر دين الله، ويدعو إليه[٢].

وكان أحد زعماء قريش، الذين حاولوا صدَّ النبي ﷺ عن دعوته، وعرضوا عليه كل المغريات ليكفَّ عنهم، فلم يفلحوا في محاولتهم[٣]، فعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة: اللات والعُزى، ويعبدوا إلهه سنة، فنزل قولـه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الكافرون: ١-٦)[٤]، وأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٤-٦٦)[٥].

ومشى مرة مع عُصبة من أشراف قريش إلى النبي ﷺ فدعاهم إلى التوحيد، فرفضـوا دعـوته، فأنـزل الله عـز وجـل: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ (ص: ٦-٧)[٦].

(١) الطبري (٢/٣٩٨)، وابن الأثير (٢/١١٠).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٢٧٧)، والطبري (٢/٣٢٣)، وابن الأثير (٢/٦٣).

(٣) انظر التفاصيل في: سيرة ابن هشام (١/٣١٤-٣١٨).

(٤) انظر تفسير الطبري (٣٠/٢١٤)- طبعة بولاق.

(٥) انظر الطبري (٢/٣٣٧). (٦) انظر الطبري (٢/٣٢٤).

وكان أحدَ المستهزئين بالنبي ﷺ[١]، وهو الذي كان إذا ذُكر النبيُّ ﷺ قال: «دعوه، فإنما هو رجلٌ أبْتَر لا عَقِبَ له، لو قد مات، لقد انقطع ذِكْرُهُ، واسْتَرَحْتُم منه». فأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ (الكوثر:١-٣)[٢] مما هو خير من الدنيا وما فيها.. والكوثر: العظيم[٣].

وهو الذي قال للنبي ﷺ: «لو جُعل معك يا محمد مَلَك يُحَدِّث عنك الناس، ويُرى معك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٨-٩)[٤].

وكان خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ[٥] صاحب رسول الله ﷺ قَيْنًا بمكة يعمل السيوف، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفًا، عملها له، حتى إذا كان له عليه مال، فجاء يتقاضاه، فقال له: «يا خَبَّابُ! أليس يزعم محمد، صاحبكم هذا، الذي أنت على دينه، أن في الجنة ما ابتغى

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/١٥-١٦)، وجوامع السيرة (٥٣)، وابن الأثير (٢/٧٢).

(٢) انظر الكشاف للزمخشري (٣/٩١٣).

(٣) سيرة ابن هشام (١/٤٢١).

(٤) سيرة ابن هشام (١/٤٢٣).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٦٤-١٦٧)، وأسد الغابة (٢/٩٨-١٠٠).

أهلُها من ذَهَب أو فِضة أو ثياب أو خدم؟» قال خباب: «بلىٰ»، قال: «فأنْظِرْني إلى يوم القيامة يا خباب؛ حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله، لا تكون أنت وأصحابك يا خَبَّابُ، آثر عند الله مني، ولا أعظم حظًا في ذلك». فأنزل الله تعالىٰ فيه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾، إلى قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ (مريم: ٧٧-٨٠)[١].

ومع ذلك فقد كان العاص يحترم حرية الرأي، فقد زجر الذين أرادوا سوءًا بعمر بن الخطاب رضي الله عنه من قريش، حين أعلن عمر إسلامه على الملأ، فقال العاص للذين أرادوا الاعتداء على عُمَر لإسلامه: «رجل اختار لنفسه أمرًا، فماذا تريدون؟! أترون بني عَدي يسلِّمون لكم صاحبهم هذا؟! خَلُّوا على الرجل»[٢] وهذا يدل على أنه كان عاقلاً، يتسم ببعد النظر، بالإضافة إلى تمسكه بحرية الرأي.

وكان العاص من أغنياء قريش، يلبس الحُلَّة[٣]، ويرتدي الديباج مزورًا[٤] بالذهب[٥]، فهو من المترفين حقًا، وذو ثراء عريض.

وكان مشهورًا بالكرم وحسن الوفادة، ومعاونة المحتاج، وقد مات العاص بن وائل، بين مكة والأبواء[٦]، والمدينة بالأبواء في رواية، وهو

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨٠)، والقين: الحدّاد، ثم أطلق على كل صانع. (ج) أقيان، وقيون، والقين: العبد، (ج): قيان.

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٧١)، وابن الأثير (٢/٨٦-٨٧)، نسب قريش (٤٠٩).

(٣) ابن الأثير (٢/٨٦). (٤) مزوّرًا: مزيّنًا. (٥) العقد الفريد (١/٤٨).

(٦) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع من المدينة، بينها وبين الجُحْفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل: الأبواء جبل على يمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة، انظر معجم البلدان (١/٩٢).

ما نرجحه، لوجود هذا النص عليه، وهو قول الشاعر:

يا رُبَّ زِقٍ[1] كالحمار وجَفْنَةٍ
كُفِيَتْ خِلافَ الرَّكبِ مَدْفَعَ أرْثَد[2]

* وفي العاص بن وائل، يقول الزِّبَعْرىٰ:

أصاب ابنُ سَلْمى خُلَّةً[3] من صديقه
ولولا ابنُ سَلْمى لم يكن لك راتِقُ
فآوى وَحيـًا إذ أتـاه بِخُلَّـةٍ
وأعرض عنه الأقربون الأصـادقُ
فإما أُصِبْ يومًا من الدَّهر نُصـرةً
أتَتْك وإني بابن سَلْمى لصـادقُ
وإلا تكُنْ إلا لسـاني فإنَّـه
بِحُسن الذي أسْديتَ عني لنَاطِقُ
ثِمَـالٌ[4] يعيشُ المُقْتِـرون بفضله
وسَيْبٌ[5] ربيعٍ ليس فيه صواعقُ[6]

(١) الزِق: وعاء من جلد - يُجَزّ شَعْرُه ولا يُنتف - للشراب وغيره.

(٢) نسب قريش (٤٠٨)، ومدفع الوادي: حيث يدفع السيل، وأرثد: اسم واد بين مكة والمدينة في وادي الأبواء، انظر معجم البلدان (١/١٧٨).

(٣) خلّة: الصداقة والمحبة التي تخللت القلب فصارت خلاله، أي باطنه.

(٤) ثمال: الملجأ والغياث.

(٥) السَّيْب: العطاء، والمعروف، ونحوه.

(٦) نسب قريش (٤٠٨-٤٠٩).

وأم العاص بن وائل: سَلْمى البَلَوِيَّة، من بَلِيّ من قُضاعة[١].

لقد كان العاص من أشراف قريش المتميزين[٢].

وأم عمرو بن العاص هي: سَلْمى بنت حَرْمَلة، تُلَقَّب بالنابغة من بني عَنَزَة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بسوق عُكَاظ، فاشتراها الفاكهة بن المغيرة، ثم اشتراها عبد الله بن جُدْعَان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فأنجبت عَمْرًا[٣] وإخوته لأمّه: عُرْوة بن أُثَاثَة العَدَوي[٤]، كان من مهاجرة الحبشة، وأَرْنَبُ بنت عَفِيف بن العاصي[٥]، وعُقبة بن نافع[٦] بن عبد القيس بن لَقِيط من بني الحارث بن فِهْر القرشي[٧].

وفي رواية ثانية، أن أم عمرو بن العاص حبشية[٨]، والرواية الأولى متواترة في المصادر المعتمدة، لذلك نرجحها على الرواية الثانية.

وعمرو من بني سَهْم، وهم بطن من عشرة أبطن من قُريش، انتهى إليها الشرف قبل الإسلام هم: هاشم، وأمية، ونَوفل، وعبد الدار، وتَيْم، وأسد، ومخزوم، وعَدِي، وجُمَح، وسَهْم[٩]، وكان لكلٍّ بطن

---

(١) نسب قريش (٤٠٨)، وانظر سيرة ابن هشام (٢٩٨/٤).

(٢) نسب قريش (٤٠٨).

(٣) الاستيعاب (١١٨٤/٣-١١٨٥)، نسب قريش (٤٠٩)، والعقد الفريد (٥٤/١).

(٤) انظر سيرته في الاستيعاب (١٠٦٤/٣).

(٥) انظر سيرتها في الإصابة (٤/٨).

(٦) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٩٠/١-١٣٦)، وكتابنا: عقبة بن نافع الفِهْري.

(٧) نسب قريش (٤٠٩)، والاستيعاب (١١٣-١١٨).

(٨) المحبّر (٣٠٦).

(٩) سيرة ابن هشام (١٤٣/١-١٤٤).

من هذه البطون واجب خاص، فكان بنو سَهْم أصحاب الحكومة في قريش، والحكومة عمل يشبه القضاء، بحيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم، ممن يفد على مكة من العرب، إلى زعماء بني سهم، فيما يقع بينهم من الخصومات، وهذا يدل على أنهم كانوا أصحاب رأي وحِلْم ودهاء واتِّزان وحصافة.

وكان لبني سَهْم أيضاً، الرئاسة على الأموال الخاصة بآلهة قريش، وهي أشبه شيء بالأوقاف العامة.. وفي قبضة صاحب هذا العمل الأموال المحجّرة -كما كانوا يسمونها- يتصرّف فيها حسب ما تقتضيه القواعد التي جَرَوْا عليها في العمل بأموال أوثانهم وأصنامهم.

وقد اشتهر بنو سَهْم بالغزو، والشرف، والشِّعر، وفَصْل الخصومات، واليسار[1]، فنشأ عمرو في هذه البيئة الحَضَرية بمكة، التي لم تنقطع صلتها بالبداوة في التربية، والناحية الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، وترعرع في رعاية والده، رئيس بني سَهْم، وأحد زجالات قريش، وزعمائها، ورؤسائها، وأشرافها البارزين، الذي كان معروفًا برجاحة العقل، وبُعْد النظر، وسعة الأفق، والكفاية القيادية، والتجارب العملية، والثراء، وبرعاية والدته الذكية القوية، ويكفي دليلاً على تجاربها في الحياة وذكائها وصلابتها، أنها أم عمرو، وأم عقبة بن نافع، وهما من أعظم قادة الفتح الإسلامي، ومن أبرز الولاة والإداريين والأمراء.

لقد كانت بيئة عمرو التي نشأ فيها وترعرع، صالحة لتنشئة القادة والإداريين.

(١) انظر كتاب: تاريخ عمرو بن العاص - الدكتور حسن إبراهيم حسن (١٠-١١).

في الجاهليـــة

سفارة عمرو إلى النجاشي

كان عمرو، وكان أبوه العاص بن وائل، من المجاهرين بالظلم لرسول الله ﷺ، ولكل مَن آمَن به[١].

ولما رأى رسول الله ﷺ، ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانته من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أحدٌ، وهي أرضُ صِدْقٍ، حتى يجعلَ اللهُ لكم فَرَجًا مما أنتم فيه**»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ، من مكة إلى أرض الحبشة، مَخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام[٢]، وهي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، في السنة الخامسة، من النبوة[٣].

ولما رأت قريش أن المسلمين المهاجرين، قد اطمأنوا بأرض الحبشة،

(١) الدرر (٤٧).

(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٤٣).

(٣) انظر كتابنا: ومضات من نور المصطفى (١٧) – ط٢.

وأمِنوا، وأن النجاشي[1] قد أحسن صحبتهم، ائتمروا بينهم، فبعثوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة[2]، ومعهما هدية إليه، وإلى أعيان أصحابه، فسارا حتى وصلا إلى أرض الحبشة، فحملا إلى النجاشي هديته، وإلى أصحابه هداياهم، وقالا لهم: «إن ناساً من سفهائنا، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد أرسَلَنَا أشرافُ قومِنا إلى الملك؛ ليردهم إليهم، فإذا كلمنا المَلِك فيهم، فأشيروا عليه، بأن يرسلهم معنا، من غير أن يكلمهم»، وخافا إنْ يسمع النجاشيُ كلامَ المسلمين أن لا يسلِّمهم، فوعدهما أصحاب النجاشي المساعدة على ما يريداه.

ثم إنهما حضرا عند النجاشي، فأعلماه بالذي جاءا من أجله، إلى أرض الحبشة، فأشار أصحابه بتسليم المسلمين إليهما. وغضب المَلِك من ذلك، وقال: «لا والله لا أسلم قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَن سواي، حتى أدعوهم، وأسألهم، عما يقول هذان الرجلان، فإن كانا صادقين، سلمتهم إليهما، وإن كانا على غير ما يذكر هذان الرجلان، منعتهم وأحسنت جوارهم».

---

(١) النجاشي: لقب لكل من مَلَك الحبشة، واسمه أصْحَمَة الذي كان في زمن النبي ﷺ.. وكل مَن وَلِيَ أمْرَ المسلمين يقال له: أمير المؤمنين، ومَن مَلَك الروم: قيصر، ومَن ملك الفرس: كسرى، ومَن مَلَك الترك: خاقان، ومن ملك القبط: فرعون، ومن ملك مصر: العزيز، ومن ملك اليمن: تُبَّع، ومن ملك حِمْيَر: القَيْل، وقيل: القيل أقل درجة من الملك، انظر شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم (٢/٣٣٧-٣٣٨).

(٢) في سيرة ابن هشام (١/٣٥٦): عبد الله بن أبي ربيعة، وكذلك في أنساب الأشراف (١/٢٣٢).

وأرسل النجاشي إلى أصحاب النبي ﷺ، فدعاهم فحضروا، وقد أجمعوا على صدقه فيما سَرّه وسَاءه، وكان المتكلم عنهم جعفر بن أبي طالب[1]، فقال لهم النجاشي: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من المِلَل؟!» فقال جعفر: «أيها الملك! كُنَّا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا منّا رسولاً، نعرف نسبَه، وصدقَه، وأمانتَه، وعفافَه، فدعانا لتوحيد الله، وأن لا نُشرك به شيئًا، ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة، والصيام»، وعدّد عليه أمور الإسلام، قال: «فآمَنَّا به وصدقناه، وحرّمنا ما حرّم علينا، وحلّلنا ما أحل لنا، فتعدّى علينا قومُنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا، وظلمونا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا ألا نُظلم عندك، أيها الملك!»

وقال النجاشي: «هل معك مما جاء به عن الله شيء؟» فقال له

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

جعفر: «نعم»، فقال له النجاشي: «فاقرأه عليّ»، فقرأ عليه صدراً من سورة (كهيعص)، فبكى النجاشي، حتى اخضلّت[1] لحيته، وبكت أساقفته، حتى أخْضَلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: «إنّ هذا، والذي جاء به عيسى، ليخرجُ من مشكاةٍ[2] واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلّمهم إليكما ولا يُكادون».

وخرج عمرو وصاحبه، من عند النجاشي، فقال عمرو لصاحبه: «والله لآتينّه غداً، بما أستأصل به خَضْراءهم[3]»، فقال عبد الله بن أبي ربيعة[4] -وهو الذي أوفدته قريش، مع عمرو، إلى النجاشي، وليس عبد الله بن أبي أمية الذي ذكره قسم من المؤرخين خطأ، بأنه كان مع عمرو في سفارته القرشية إلى النجاشي، لأنه لم يسافر إلى النجاشي مع عمرو[5]، بل الذي رافقه بسفره هذا هو عبد الله بن أبي ربيعة[6]، وكان عبد الله بن أبي ربيعة، أتقى الرجلين: عمرو، وعبد الله بن أبي ربيعة-: «لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا خالفونا»،

---

(١) اخضلّت: ابتلّت.

(٢) المشكاة: الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح، وهي الكُوة غير النافذة.

(٣) استأصل خضراءهم: جماعتهم ومعظمهم.

(٤) أسد الغابة (٣/١٥٥)، والإصابة (٤/٦٥)، والاستيعاب (٣/٨٩٦).

(٥) أسد الغابة (٣/١١٨)، والإصابة (٤/٣٦)، والاستيعاب (٣/٨٦٨).

(٦) أسد الغابة (٣/١٥٥)، والإصابة (٤/٦٥)، والاستيعاب (٣/٨٩٦)، وانظر سيرة ابن هشام (١/٣٦٠)، وأنساب الأشراف (١/٢٣٢)، وجوامع السيرة (٦٣)، والدرر (١٣٩).

فقال عمرو: «والله لأخبرنَّه، أنهم يزعمون، أن عيسى بن مريم عبدٌ».

وغدا عمرو على النجاشي من الغد، فقال: «أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيمًا، فأرسلْ إليهم فَسَلْهم عما يقولون فيه».

وأرسل النجاشي إلى المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة، فسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فأخذ النَّجَاشِيُّ عُودًا من الأرض، وقال: «ما عدا عيسى ما قلتَ هذا العود»[1]، فنَخَرتْ بَطَارِقَتُه، فقال: «وإن نخرتم»، وقال للمسلمين: «اذهبوا فأنتم آمنون، ما أُحبُّ أن لي جَبَلاً من ذهب، وأنني آذيت رجلاً منكم»، وردَّ هدية قريش، فخرج عمرو وصاحبه، مقبوحَيْن، مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون معه بخير دار مع خير جار[2].

وكان أبو طالب عم النبي ﷺ، حين علم أن قريشًا بعثوا عمرو بن العاص وصاحبه إلى النجاشي، قد بعث أبياتًا من الشعر للنجاشي،

---

(١) قال أبو ذر: «تقديره ما جاوز مقدار هذا العود أو قدر هذا العود».

(٢) سيرة ابن هشام (٣٥٦١-٣٦١)، وابن الأثير (٢/٧٩-٨١)، وأنساب الأشراف (١/٢٣٢)، والطبري (٢/٣٣٥)، وجوامع السيرة (٦٣)، والدرر (١٣٩).

يحضه على حسن جوار المسلمين المهاجرين، والدفع عنهم، جاء فيها:

ألا لَيْتَ شِعْري كيفَ في النَّأي جعفرُ
وعمرو وأعداء العدُوِّ الأقاربُ

فهل نالَ أفعالُ النجاشي جعفـــراً
وأصحابُه أو عاق ذلك شَاغِبُ [1]

تَعَلَّمْ أبيتَ اللَّعْنَ أنك ماجـــد
كريم فلا يَشْقى لديك المُجَانِبُ [2]

تَعَلَّم بأنَّ اللّهَ زادكَ بَسْطـــةً
وأسبابَ خيرٍ كُلُّها بِك لازبُ [3]

وأنَّك فَيْضٌ ذو سِجَالٍ غزيـــرةٍ
يَنَالُ الأعادي نَفْعُها والأقاربُ [4]

---

(١) عاق: منع. وشاغب: يروى بالغين معجمة من الشغب، ويُروى بالعين مهملة، ومعناه المفرِّق.

(٢) أبيت اللعن: هذه تحية العرب في الجاهلية للملوك، يريدون: أبيت أن تأتي من الأمور ما يكون سبباً في اللعن. والمجانب: أراد به الداخل في حماه.. يقال لمن انضوى إلى جانبك ولاذ بجوارك: مجانب، ولا يصحّ أن يكون من المجانبة.

(٣) لازب: لاصق ولازم.

(٤) فيض: أراد به أنه كريم. وسجال: في الأصل جميع سِجل، وهو الدّلو إذا امتلأت، وأراد منه ههنا العطية، وانظر الأبيات في سيرة ابن هشام (١/٢٥٦-٢٥٧)، وقد كان أبو طالب عم النبي ﷺ شاعراً، وقد تكون هذه الأبيات معبّرة عما كان يجول بخلده عن المهاجرين إلى الحبشة، وما يؤمله في النجاشي من حمايتهم من عمرو بن العاص وصاحبه ومشركي قريش، إذ لا دليل على علم النجاشي بالعربية الفُصحى.

ولما عاد عمرو وصاحبه إلى مكة خائِبَيْن، ورأت قريش أنّ الإسلام يفشو ويزيد، ائتَمَروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً، يتعاقدون فيه، على ألا يُنكِحُوا بني هاشم، وبني المطَّلب، ولا يَنْكِحُوا إليهم، ولا يبيعوهم، ولا يبتاعون منهم شيئًا، فكتبوا بذلك صحيفة، وتعاهدوا على ذلك، ثم عَلَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم.. فلما فعلت قريش ذلك، انحازت بنو هاشم، وبنو المطلب، إلى أبي طالب، فدخلوا فيه في شِعْبِه واجتمعوا، فأقاموا على ذلك سنتين، أو ثلاثًا، حتى جهدوا، لا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سراً، حتى نقض الصحيفة نَفَر من قريش[١].

لقد أخفق عمرو، في سفارته لمشركي قريش، إلى النجاشي، إخفاقًا كاملاً، بالرغم من أنه بذل كل ما يستطيعه بشر متميز، من أجل تحقيق هدفه، وكان إخفاقه لأنه كان على الباطل، ولأن المسلمين كانوا على الحق، ولأن النجاشي كان حاكمًا عادلاً منصفًا.

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٢/٨٧-٩٠).

في حرب المسلمين

١ - في غزوة بدر الكبرى

كان عمرو تاجراً في الجاهلية، وكان يختلف بتجارته إلى مصر، وهي الأَدَم والعِطْر[١]، كما كان يختلف بتجارته إلى بلاد الشام أيضاً، وإلى اليمن، وأرض الحبشة، في رحلتي الشتاء والصيف.

وكان جزاراً[٢] أيضاً، ويبدو أنه كان يتخذ هذه الحرفة، حين يستقر في مكة، ولا تشغله رحلاته التجارية، صيفاً أو شتاءً، إلى مختلف الأقطار عن هذه الحرفة، وبخاصة، وأن أعماله التجارية، تشغله كثيراً من أيام السنة، فإذا انقضت تلك الأيام، عاود مزاولة حرفته الأصلية، التي يبدو أنها كانت مربحة.

وكان عمرو مع قافلة أبي سُفيان التجارية، العائدة من بلاد الشام، إلى مكة، وهي القافلة، التي ندب النبي ﷺ المسلمين إليها، وكان المسلمون، يترصدون غدوها ورواحها، ويعرفون تفاصيل حركتها، من

(١) الولاة والقضاة (٦-٧).

(٢) المعارف (٥٧٥).

مكة إلى بلاد الشام، ومن بلاد الشام إلى مكة، فخرج المسلمون إلى موقع بدر، بين المدينة ومكة، وكان خروجهم في شهر رمضان من السنة الثانية الهجرية[1].

ولكنّ أبا سفيان بن حَرْب، استطاع أن يبتعد بالقافلة، عن طريق بَدْر، ويتساحل في طريق عودته إلى مكة، حتى أنقذ القافلة من المسلمين.

إلا أن المشركين من قريش وحلفائهم، قصدوا موقع بَدْر، واشتبكوا بالمسلمين في غزوة بدر الكبرى، حيث انتصر المسلمون على المشركين، انتصاراً حاسماً، فكانت هذه الغزوة من معارك المسلمين الحاسمة[2].

ولم يشهد عمرو هذه المعركة مع مشركي قريش، لأنه كان مع قافلتهم التجارية، وكانت مهمته الأولى، إنقاذ هذه القافلة من المسلمين.

٢ - في غزوة الأحزاب

شهد عمرو غزوة الأحزاب (الخندق) التي كانت في شهر شوال، من السنة الخامسة، مع المشركين على المسلمين أيضاً.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤)، وانظر جوامع السيرة (١٠٧)، والدرر (١١٠)، وابن الأثير (١١٦/٢)، وأنساب الأشراف (٢٨٨/١).

(٢) انظر طبقات ابن سعد (٢/١١-٢٧)، وسيرة ابن هشام (٢/٢٤٨-٣٦٧)، وعيون الأثر (٢٤١/١-٢٩٢)، وجوامع السيرة (١٠٧-١٤٩)، والدرر (١١٠-١٣٨)، وانظر كتابنا: الرسول القائد (٩٩-١٤٨)- ط٥.

وقد ذكر جابر بن عبد الله[١]، رضي الله عنه، فقال: «لقد رأيتني أحرس الخندق، وخيل المشركين تُطيف بالخندق وتطلب غِرَّة ومَضِيقًا من الخندق، فتقتحم فيه، وكان عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، هما اللذان يفعلان ذلك، يطلبان الغفلة من المسلمين»[٢].

وقرّر رؤساء الأحزاب وزعماؤهم، اقتحام الخندق، وكان عمرو من بين أولئك الرؤساء والزعماء، فطلبوا مضيقًا يقتحمونه، إلى النبي ﷺ وأصحابه، فانتهوا إلى مكان أغفله المسلمون في الخندق، فجعلوا يُكْرِهُون خيلهم، ويقولون: «هذه المكيدة ما كانت العرب تصنعها، ولا تكيدها!»، فقيل لهم: «إنَّ معه رجلاً فارسيًا، فهو الذي أشار عليه بهذا!» فعبر قسم منهم، ولكنهم اخفقوا في عبورهم، فعادوا إلى قواعدهم هاربين[٣].

وحين أزمع المشركون، أن يرحلوا عن المدينة خائبين، بعث النبي ﷺ حُذيفة بن اليَمَان[٤]، ليستطلع موقف المشركين، ويكتشف

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٧٤)، وأسد الغابة (١/٢٥٦)، والإصابة (١/٢٢٢)، والاستيعاب (١/٢١٩).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٤٦٥).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٤٧٠-٤٧٢).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح بلاد فارس (١٠٨-١١٧).

نيَّاتهم، فتغلغل بالعمق، في حشود المشركين ليلاً، وكانت الرِّيح تفعل بهم ما تفعل: ما تُقِرُّ لهم قِدْرًا ولا بناءً. وأقبل حُذيفة، حتى جلس على نار من نيران الأحزاب، مع قوم من المشركين، فقام أبو سفيان بن حرب فقال: «احذروا الجواسيس والعيون، ولينظر كل رجل جليسه»، فالتفت حُذيفة إلى أقرب رجل منه، وقال له: «مَن انت؟» فقال: «عمرو بن العاص».

وأمر أبو سفيان بالرحيل، فجعل الناس، يرتحلون، وهو قائم، حتى خَفَّ العسكر. ثم قال لعمرو بن العاص: «يا أبا عبد الله! لابدَّ لي ولك، أن نقيم في جريدة[1] من خيل، بإزاء محمد وأصحابه، فإنَّا لا نامن، ان نُطلب، حتى ينفذ العسكر»، فقال عمرو: «أنا اقيم». وقال لخالد بن الوليد: «ما تَرى يا أبا سليمان؟» فقال: «أنا أيضًا أقيم»، فأقام عمرو، وخالد، في مائتي فارس، وسار العسكر، إلا هذه الجريدة على متون الخيل[2].

---

(١) الجريدة: هي التي جردت لوجهٍ، معظمها من الخيل، انظر أساس البلاغة (١١٦)، وهي هنا: السّاقة، المؤلفة من الفرسان، والتي تكون في نهاية المؤخرة، لحماية انسحاب القوات المنسحبة، ولمنع العدو من الحصول على المعلومات عن انسحابها.

(٢) مغازي الواقدي (٢/٤٨٩-٤٩٠).

عمرو .. في صراعه النفسي

لقد كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، مذكوراً بذلك فيهم[١]، وكان شاعراً نظم الشعر، متشفياً بهزيمة المسلمين في غزوة أُحُد[٢]، وفي أغراض أخرىٰ، وكان أشدّ الناس علىٰ رسول الله ﷺ[٣]، وعلى الإسلام والمسلمين.

وكان فوق ذلك معروفًا بالدّهاء، وحسن التصرف بين رجالات قريش، مما أدّى إلى إرساله سفيراً إلى أرض الحبشة مرتين، لإقناع النجاشي، بتسليم المهاجرين من المسلمين إلى أرض الحبشة، للمشركين من قريش، ولكنه أخفق في سفارتيه إخفاقًا كاملاً، ولم يحقق شيئًا يُذكر لمشركي قريش، الذين اختاروه سفيراً لهم، بل كان من ثمرات سفارتيه تعلق النجاشي بالمسلمين المهاجرين إلى بلاده، وإصراره على الدفاع عنهم، وإعجابه بعقيدتهم وبمنطقهم الصادق السليم.

وقد كان أمام عمرو -أسوة بغيره من قريش- مسلكان، لا ثالث لهما:

المسلك الأول: هو البقاء على عقيدة الآباء والأجداد، عقيدة الشرك.

---

(١) الاستيعاب (١١٨٨/٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١١٠/٣و١١٦).

(٣) الاستيعاب (١١٩٠/٣).

والمسلك الثاني: اعتناق الإسلام، عقيدة التوحيد.

وقد كان إصرار عمرو على عقيدته إصراراً إيجابياً، إذ دافع عنها في بلاده مهبط الوحي، وخارج بلاده في أرض الحبشة، وأرض الشام، ومصر، وتحدى الإسلام والمسلمين في السلم والحرب، وبذل قصارى جهده، ليحقق نجاحًا للمشركين في ميدان القتال، وفي ميدان السياسة، فما حقق غير الإخفاق المطبق، والخيبة والقنوط.

ولعل إخفاقه الكامل في سلوكه المسلك الأول، بالرغم من جهوده المتواصلة، لإحراز شيء من النجاح، هو الذي حمله على سلوك المسلك الثاني، فقطع صلته نهائيًا بالشرك والمشركين، ويمم شطر الإسلام والمسلمين، وكان تحوّله من عبادة الأوثان، إلى عبادة الواحد الأحد، نتيجة تجاربه العملية الطويلة، فكان تحوّله تحوّل اقتناع، لا تحول عاطفة؛ تحول القائد القدير، الذي لم ينتصر على المسلمين أبداً، وتحوّل السياسي الحصيف، الذي لم يوفق قط، وما انهزم القائد الفذّ، ولا أخفق السياسي البارع، ولكن أخفقت نفسه الخاوية من العقيدة السليمة، فاستسلم القائد، واقتنع السياسي، باندحار العقيدة السقيمة، في مواجهة العقيدة السليمة.. والهزيمة تلحق بالمرء، لا بسبب قلة أشيائه، بل بسبب ضحالة أفكاره، لأن (المادة) وحدها لا ترفع المعنويات، والعقيدة السليمة وحدها ترفع المعنويات، والمهزوم في نفسه، لا ينتصر في الحرب، ولا ينجح في السلام.

الإنســـــان

١ ـ الوالـي

لما أسلم عمرو، قرّبه النبي ﷺ، لمعرفته، وشجاعته، وولاّه غُزاة ذات السلاسل، واستعمله على عُمان، فمات النبي ﷺ، وهو أميرها[١]، قال عمرو: بعث إليّ النبي ﷺ، فقال: «**خذ عليك ثيابك وسلاحك، ثم ائتني**». فأتيته، فقال: «**إني أريدُ أن أبْعَثَك على جيش، فَيُسَلِّمَكَ اللهُ، ويُغْنِمَكَ، وأرغبُ لك من المال رغبةً صالحة**». فقلتُ: يا رسولَ الله! ما أسلمتُ من أجل المال، بل أسلمتُ رغبةً في الإسلام. فقال: «**يا عمرو! نَعِمًا بالمالِ الصالح للمرءِ الصالح**»[٢].

وكان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، يقول عن عمرو: «**عمرو ابن العاص من صالحي قريش**»[٣]، فقد أسلم عمرو وحسن إسلامه، وأخلص لدينه، وكان إيمانه راسخًا، حتى قال النبي ﷺ في عمرو: «**أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص**»[٤].

(١) الإصابة (٥/٢)، والحلة السيراء (٤٣/١).

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٠٢/٤)، والإصابة (٣/٥)، والاستيعاب (١١٨٦/٣).

(٣) أسد الغابة (١١٧/٤)، والإصابة (٣/٥).

(٤) مسندالإمام أحمد (١٥٥/٤)، والترمذي (٢١٦)، وانظر أسد الغابة (١١٧/٤)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (٢٣٨/١) حديث رقم ١٥٥.

ولما قُبض رسول الله ﷺ، بعثه أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، أميراً من أمراء الشام[1]، فشهد معارك فتح الشام في أيام أبي بكر الصديق، قائداً وإدارياً.

وولاّه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فلسطين، والأردن[2]، ثم كتب إليه أن يسير إلى مصر، ففتحها عمرو، فولاّه مصر، إلى أن مات عمر بن الخطاب[3].

لقد كان عمر، إذا استعمل عاملاً، كتب عليه كتابًا، وأشهد عليه رَهْطًا من الأنصار، أن لا يركب بِرْذَوْنًا، ولا يأكل نقيًّا، ولا يلبس رقيقًا، ولا يغلق بابه دون حاجة المسلمين.. وكان يكتب إلى أمراء الأمصار: «بأنّ لكم معاشر الولاة، حقًا على الرعيّة، ولهم مثل ذلك، فإنه ليس من حلمٍ أحبّ إلى الله، ولا أعمّ نفعًا، من حِلم إمام ورِفْقه، وأنه ليس جهل أبغض إلى الله، ولا أعم ضرراً، من جَهْل إمام وخُرْقه، وإنه مَنْ يطلب العافية فيمن بين ظهرانيه، يُنزل اللهُ عليه العافيةَ من فوقه»[4].

وكان عمر يقول: «مَن استعمل رجلاً لمودّة أو لقرابة، لا يُشغله إلاّ ذاك، فقد خان اللهَ ورسولهَ والمؤمنين»[5]، وكان يقول: «أيّما عامل لي ظَلَمَ أحداً، فبلغني مظلمتُه، فلم أغيّرْها، فأنا ظلمتُه»[6].

(١) ابن الأثير (٤٢١/٢).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١٢٩/١).

(٣) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧)، وتاريخ خليفة بن خياط (١٣٠/١)، وابن الأثير (٧٧/٣).

(٤) تاريخ عمر لابن الجوزي (٨٥).

(٥) تاريخ عمر (٥٦).

(٦) تاريخ عمر (٨٧).

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: «كنّا عند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذ جاء رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بك. قال: وما لك؟ قال: أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر، فأقبلت فرس لي، فلمّا تراآها الناس، قام محمد بن عمرو فقال: فرسي، وربِّ الكعبة! فلما دنا مني عرفته، فقلتُ: فرسي وربِّ الكعبة! فقام يضربني بالسوط، ويقول: خذها .. خذها .. وأنا ابن الأكرمين! فوالله ما زاد عُمَرُ علىٰ أن قال: اجلس! ثم كتب إلى عمرو: «إذا جاءك كتابي هذا، فأَقْبِل، وأَقْبِل معك بابنك محمد. فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حَدَثًا؟! أجَنَيتَ جناية؟! قال: لا. قال: فما بَالُ عُمَر يكتب فيك؟ فقدما على عُمَر، فوالله إنّا لعند عمر بـ(مِنَى)[1]، إذ نحن بعمرو، وقد أقبل في إزارٍ ورداء، فجعل عمر يلتفت، هل يرى ابنه، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟ فقال: ها أنا ذا. قال: دونك الدِّرَّة، اضربْ بها ابن الأكرمين .. اضربْ بها ابن الأكرمين.. اضرب بها ابن الأكرمين.. فضربه، حتى أثخنه، ثم قال: أجِلْها على صَلْعَة عمرو، فوالله، ما ضربك إلا بفضل سلطانه. فقال: يا أمير المؤمنين! لقد ضربتُ مَن ضَرَبَني. فقال: أما والله لو ضربته، ما حُلْنَا بَيْنَك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعـــه! يا عمرو! متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أحرارًا أُمَّهُم؟؟ ثم التفت إلىٰ المصري فقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريبٌ فاكتب إليّ»[2].

---

(١) منى: بليدة على فرسخ من مكة، تعتمر أيام موسم الحج، وتخلو أيام السنة إلا ممن يحفظها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٨/٨-١٥٩).

(٢) تاريخ عمر (٧٣)، وفتوح مصر والمغرب (٢٢٥-٢٢٦).

بل حاسب عمر بن الخطاب عَمْرًا، وقاسمه ماله، فقد كتب إلى عمرو: «من عبدِ الله عُمَرَ بن الخطاب، إلى عمرو بن العاص. سلام عليك. أما بعد، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشيةٌ من خيلٍ، وإبل، وغَنَم، وعبيد، وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال عندك، فاكتب إليَّ مِن أين أصل هذا المال، ولا تكتُمْه».

فكان جواب عمرو: «من عمرو بن العاص، إلى عبد الله عمر بن الخطاب، أمير المؤمنين. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين، يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك، لا مال لي. وإني أُعْلِم أميرَ المؤمنين، أني ببلدٍ السِّعر به رخيص، وأني أُعالج من الحِرْفَة والزراعة ما يعالجه أهله[1]، وليس في رزق أمير المؤمنين سَعَة، وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً، ما خُنتُك، فأقْصِر أيها الرجل، فإن لنا أحسابًا، هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها، عشنا بها، ولَعَمْري! إن عندك[2] من يَذُمّ معيشته، ولا تُذَمّ له. وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين، مَنْ هو خير مني[3]، فأنّى كان ذلك، ولم نَفتَح قُفْلَك، ولم نَشرِكْك في عملك[4]».

فكتب إليه عمر: «أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي

(١) في نسخة أخرى: الناس.

(٢) يشير عمرو بقوله: «إن عندك.. الخ» إلى غنى أهله بالحجاز وثرائهم.

(٣) التكملة من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٥٨/١)، ولا يستقيم الكلام بدونها.

(٤) في شرح نهج البلاغة: «فإذا كان ذاك، فوالله ما دققتُ لك يا أمير المؤمنين بابًا، ولا فتحتُ لك قُفلاً».

تُسَطِّر، ونَسْقك الكلام في[1] غير مَرجع، وما يُغني عنك أن تُزكّي نَفْسَك، وقد بعثتُ إليك محمد بن مسلمة[2]، فشاطِرْه مالك، فإنّكم أيها الأمراء جلستم على عيون المال، ثم لم يُعوزكم عُذْر، تجمعون لأبنائكم، وتُمَهِّدون لأنفسكم، أما إنّكم تجمعون العار، وتُوَرِّثون النار[3]، والسلام».

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة، صنع له طعامًا كثيرًا، فأبىٰ محمد بن مَسْلَمة أن يأكل منه شيئًا، فقال له عمرو: «اتحرِّمون طعامنا؟!» فقال: «لو قَدَّمتَ إليّ طعامَ الضَّيف أكلتُه، ولكنّك قدّمتَ إليّ طعامًا هو تَقْدمة شرٍ! والله لا أشربُ عندك الماءَ، فاكتُبْ لي كُلَّ شيءٍ هو لك، ولا تكْتُمه»، فشاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه، فأخذ إحداهما وترك الأخرى[4].. وقد قاسم عمر بن الخطاب أموال كثير من عماله، ممن هو أفضل من عمرو إيمانًا وسابقة، ولم يقتصر على مقاسمة عمرو وحده.

لقد كان عمر بن الخطاب، إذا نظر إلى عمرو يمشي يقول: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا»[5].

---

(١) في نسخة أخرى: «من».

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا قادة النبي ﷺ.

(٣) في نسخة أخرى: «تجمعون النار، وتورثون البوار»، والذي في شرح نهج البلاغة: «تأكلون النار، وتتعجلون العار».

(٤) العقد الفريد (١/٤٦-٤٨).

(٥) الإصابة (٥/٢)، واليعقوبي (٢/١٩٧-١٩٨)، والنجوم الزاهرة (١/٦٣).

وكان عمر بن الخطاب، إذا استضعف رجلاً في رأيه وعقله، قال: «أشهد أن خالقك، وخالق عمرو واحد»، يريد خالق الأضداد[1].

وكان عمر بن الخطاب، إذا رأى الرجل يتلجلج، يقول: «أشهد أن خالقَ هذا وخالقَ عمرو بن العاص واحد»[2].

ولعل في ذكر بعض إنجازاته العظيمة في مصر، ما يسوِّغ اختياره واليًا من عمر بن الخطاب على مصر، وهو المعروف بحرصه الشديد على اختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.

فقد فتح عمرو مصر كلها، وفتح ليبيا كلها، كما ذكرنا، وليس هذا الفتح الواسع بقليل، وقد بنىٰ مدينة الفسطاط.. ولسبب تسمية مصر بالفسطاط أقوال كثيرة، منها: أن عَمرًا لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه (خيمته)، فإذا فيه يمامة قد فَرخت، فقال عمرو: «لقد تحرّم منّا بمتحرّم»، فأمر به، فأُقِرَّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا: أين ننزل؟، قالوا: الفُسطاط -يعنون فسطاط عمرو، الذي خلّفه بمصر، مضروبًا لأجل اليمامة، فغلب عليه ذلك.

ولما رجع عمرو من الإسكندرية سنة إحدى وعشرين الهجرية، نزل موضع فسطاطه، وتنافست القبائل بعضها مع بعض في المواضع، فولَّىٰ

(١) الاستيعاب (١١٨٨/٣)، والنجوم الزاهرة (٦٤/١).

(٢) الإصابة (٥/٢-٣)، والنجوم الزاهرة (٦٤/١)، وعيون الأخبار (١٧١/٢).

عمرو معاويةَ بن حُديج وغيره على الخطط، وكانوا هم الذين نزّلوا الناس، وفصلوا بين القبائل، وذلك في سنة إحدىٰ وعشرين الهجرية[١].

كما بنى عمرو جامع عمرو بن العاص بالفُسطاط، وكان موضعه خانًا، فلما رجعوا من الإسكندرية بعد فتحها، سأل عمرو صاحبه أن يجعله مسجداً، فقال له صاحبه: «إني أتصدّق به على المسلمين»، وسلّمه إليهم، فبُني الجامع سنة إحدى وعشرين الهجرية، وكان طوله خمسين ذراعًا في عرض ثلاثين ذراعًا، ويقال: إنه وقف على إقامة قِبْلَته ثمانون رجلاً من الصحابة. ولم يكن لهذا المسجد محراب مجوّف، فجُعل له محراب مجوّف بعد عمرو. وكان للمسجد بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، وبابان في بحريّه، وبابان في غربيّه، وكان الخارج من شارع القناديل، يجد ركن الجامع الشرقيّ محاذيًا لرُكْنِ دار عمرو الغربيّ، وكان طُولُه من القِبْلَة إلى البحريّ مثلَ طولِ دار عمرو، وسقْفُه مطأطأ جداً، ولا صَحْنَ له، وكان الناس يصطفون بفنائه، وكان بينه وبين دار عمرو سبعة أذرع، وكان الطريق محيطًا به من جميع جوانبه، وكان عمرو قد اتخذ منبراً، فكتب إليه عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يَعْزم عليه في كسره، ويقول: «أما بحسبك أن تقوم قائمًا، والمسلمون تحت عَقِبَيْك»، فكسره عمرو[٢].

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٦٤-٦٥).

(٢) النجوم الزاهرة (١/٦٦-٦٧)، وانظر البدء والتاريخ (٤/٨٨).

وجعل عمرو أهل مصر، أهل ذمة، فوضع عليهم الجزية في رقابهم، والخراج في أرضهم، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب. فأجازه[1]، ولم يقسم الأرض بأمر عمر، الذي كتب إليه: «أقرّها حتى يغزو منها حَبَلُ الحَبَلة[2]».

وجمع عمرو الفَعَلة، واحتفر الخليج، الذي بحاشية الفسطاط، الذي يقال له: خليج أمير المؤمنين، فساقه من النيل إلى (القُلْزُم)[3]، فلم يأت الحول، حتى جرت به السُّفن، فحمل فيه ما أراد من الطعام إلى المدينة ومكة، ثم لم يزل يُحمل فيه الطعام، حتى حمل فيه بعد عمر بن عبد العزيز، ثم ضيّعته الولاة بعد ذلك، فتُرِكَ وغَلب عليه الرمل، فانقطع، فصار مُنْتَهَاه إلى ذنب (التِمْساح)[4]، من ناحية (طحا)[5] القُلْزُم[6].

(١) البلاذري (٢٩٩).

(٢) الحَبَل: الولد في بطن أمه. والحَبَلة: النساء الحابلات، انظر البلاذري (٣٠٠)، انظر لسان العرب، مادة حبل، وتفرّد بروايته الإمام أحمد، انظر النجوم الزاهرة (٥٢/١).

(٣) القلزم: بليدة كانت على ساحل بحر اليمن (البحر الأحمر)، من جهة مصر، وإليها ينسب البحر، فيقال: بحر القلزم، انظر تقويم البلدان (١١٦-١١٧)، ومعجم البلدان (١٤٥/٧-١٤٧)، وانظر مكانها بالضبط في خريطة: الفتح الإسلامي لمصر.

(٤) التمساح: هي بحيرة التمساح، ومكانها معروف، انظر خريطة: الفتح الإسلامي لمصر.

(٥) طحا: بلدة مصرية قديمة من بلاد مركز البهنسا من أعمال محافظة المنيا، وكان سكانها في صدر الإسلام خمسة عشر ألف نفس، انظر الهامش (٤) من كتاب: فتوح مصر والمغرب (١٩٢)، وانظر ما جاء عنها في معجم البلدان (٣٠/٦)، والمقصود بها هنا الموضع القريب من ذنب بحيرة التمساح، كما يبدو في سياق الخبر.

(٦) انظر التفاصيل في: فتوح مصر والمغرب (٢١٦-٢٢٢).

ولكن أهم ما أنجزه عمرو في المجالات الإدارية وغيرها،، هو إدخال العربية لغة، والإسلام دينًا، في مصر وليبيا.. وفي غير هذين القُطْرين العربيّين المسلمَيْن، مما فتح من الأقطار شرقًا وغربًا، امتدت من عُمان على الخليج العربي شرقًا إلى بلاد الشام على البحر الأبيض المتوسط غربًا، فكان فَتْحُهُ فَتْحًا مُسْتَدَامًا من أيامه الأولىٰ، حتىٰ اليوم، وسيبقى كذلك حتىٰ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها، لأنه كان فتح مبادئ، يعتمد اللغة والدين، ولم يكن استعباداً، يعتمد السيف والقهر.

فقد أسر المسلمون في مصر من الروم والقبط، فأمر عمرو بردّهم إلى قراهم، وصيّرهم أهل ذمة، على أن يخيّروهم بين الإسلام وبين دينهم، فإن أسلم فهو من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، وإن اختار دينه فيُعاد إلى قريته[1].

ولما انتهى المسلمون إلى (بَلْهيب)[2]، في طريقهم بعد فتح الإسكندرية، أرسل صاحب الإسكندرية إلى عمرو: «إني كنتُ أخرج الجزية إلى مَن هو أبغض إليّ منكم معشر العرب، لفارس والروم، فإن أحببتَ أن أعطيك الجزية، على أن ترد ما أصبتم من سبايا أرضي، فعلتُ».

(١) فتوح مصر والمغرب (١٢٢-١٢٣).

(٢) بلهيب: وردت في معجم البلدان: بلهيب، وفي كتاب: المسالك والممالك وفي خطط المقريزي باسم: بلهيت، وكذلك في قوانين الدواوين، وتحفة الإرشاد، وهي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية، انظر الهامش (١) من ص (١٢٢)، من كتاب: فتوح مصر والمغرب، وهي قرية من قرى مصر بالقرب من الإسكندرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٨١-٢٨٢).

وبعث إليه عمرو: «إن ورائي أميرًا لا أستطيع أن أضع أمرًا دونه، فإن شئت أن أمسك عنك، وتُمسك عني، حتى أكتب إليه بالذي عرضتَ عليّ، فإن قبل ذلك منك قبلتُ، وإن أمرني بغير ذلك مضيتُ لأمره»، فوافق صاحب الإسكندرية.

وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب، وكان لا يُخفون على الجند كتابًا كتبوا به، يذكر له الذي عرض عليه صاحبُ الإسكندرية، وقال: «... وفي أيدينا بقايا من سَبْيهم». وجاء جواب عمر، وفيه: «أما بعد. فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية، على أن تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولَعمري لَجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين، أحبّ إلينا من فَيءٍ يُقسم، ثم كأنه لم يكن، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية، على أن تُخيِّروا مَن في أيديكم مِن سَبْيهم، بين الإسلام، وبين دين قومه، فمن اختار منهم الإسلام، فهو من المسلمين، له ما لهم، وعليه ما عليهم، ومَنْ اختار دين قومه، وُضع عليه من الجزية ما يُوضع على أهل دينه...».

وجمع المسلمون ما بأيديهم من السبايا، واجتمعت النصارىٰ، فيتقدم الرّجل من السبايا، ويُخيّر بين الإسلام والنصرانية، فإذا اختار الإسلام كبّر المسلمون، ثم يضمّه المسلمون إلى صفوفهم، وإذا اختار النصرانية، نخرت النصارى، ثم حازوه إليهم، وقد كان بين السبايا،

أبو مريم عبد الله بن عبد الرحمن، الذي اختار الإسلام، فأصبح عريف زُبَيْد[1]، فقد عرض المسلمون عليه الإسلام، وعرض عليه النصارى النصرانية، وأبوه وأمه وإخوته في النصارى، فاختار الإسلام[2].

وحين حاصر عمرو حصن بابليون، أرسل إلى حُماة الحصن: «لا تعجّلونا لنعذر إليكم، وترون رأيكم بعد»، فكَفُّوا أصحابهم، وأرسل إليهم عمرو: «إني بارز، فليبرز إليّ أبو مريم وأبو مريام»، فأجابوه إلى ذلك، وآمن بعضهم بعضًا، فقال لهم عمرو: «أنتما راهبا هذه البلدة، فاسمعا: إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق، وأمره به، وأمرنا به محمد ﷺ، وأدّىٰ إلينا كل الذي أُمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته، وقد قضىٰ الذي عليه، وتركنا على الواضحة، وكان مّما أمرنا به الإعذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه فمثلنا، ومَن لم يجبنا عَرَضنا عليه الجزية، وبذلنا له المنعة، وقد أعْلَمَنا أنّا مُفْتَتِحُوكُم، وأوصانا بكم حِفْظًا لرَحِمنا فيكم، وإنَّ لكم إن أجبتمونا بذلك ذمَّةً إلى ذمَّةً. ومما عهد إلينا أميرنا: استوصوا بالقِبْطيِّين خيرًا، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيِّين خيرًا، لأن لهم رَحمًا وذمة»[3].. فما تمّ الفتح، أوكاد، إلا وكان من

---

(١) زبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مَذْحج، جمهرة أنساب العرب (٤١١-٤١٢).

(٢) الطبري (٤/١٠٥-١٠٦)، وابن الأثير (٢/٥٦٧-٥٦٨).

(٣) الطبري (٤/١٠٧).

أهل مصر في جيش عمرو جنود، بلغ قسم منهم رتبة عريف على إخوانه العرب الأقحاح المسلمين.

فلا عجب أن يكون القِبط لعمرو أعوانًا[1]، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط لفتح الإسكندرية، فعاونوا المسلمين معاونات عسكرية وإدارية، ساعدتهم على الفتح[2]، ولم ينقض القبط ولا المقوقس الصلح، الذي عقدوه بينهم وبين الفاتحين، كما نقض الروم[3]، لأن القبط أعجبوا بعدل المسلمين بقدر كُرههم لظلم الروم، وهذا ما يقرره المؤرخون المسلمون، والأقباط القُدامىٰ، ولا عبرة لادعاءات غير المنصفين من المستشرقين والمؤرخين الأجانب المحدثين، فوراء ادعاءاتهم تحيّز للنصرانية، يناقض الموضوعية وحوادث التاريخ.

والحق أن عَمْرًا أثبت كفاية إدارية فذة في ولايته لمصر، ولو كانت محاسبة عمر بن الخطاب لعمرو على المال، كما ذكرنا، لخيانة عمرو في أمانته على المال، لما أبقاه لحظة واحدة على مصر، وقد حاسب عمر بن الخطاب كل عماله أشد الحساب على المال، ومنهم مَن هو أفضل من عمرو سابقة، وتدينًا، وورعًا، وتقوى، ولكن عُمر كان يحب أن يبقىٰ عماله مثلاً رفيعًا في النقاء، والبعد عن الشبهات، حتى يكونوا موضع

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٦).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٥-١٠٦).

ثقة رعيتهم الكاملة المطلقة، فهو يحاسبهم حرصًا عليهم ورغبة في استكمال سيطرتهم على رعيتهم، وتبادل الثقة الكاملة المطلقة، بين الحكام والمحكومين.. والثقة المتبادلة، أهم كثيراً من المال، وأجدى للحاكم والمحكوم.

وأقره عثمان بن عفان، رضي الله عنه، على مصر أربع سنين، أو نحوها، ثم عزله عنها، وولاّها عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامري، فقد بويع عثمان بالخلافة، في شهر المحرّم لثلاث مضين منه، سنة أربع وعشرين الهجرية[1].. وعزل عثمان عن مصر عَمْراً سنة سبع وعشرين الهجرية[2]، فقد عُزل عمرو عن خَرَاج مصر سنة سبع وعشرين الهجرية، واستُعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وكان أخا عثمان من الرضاعة، فتباغيا، وكتب عمرو إلى عثمان يقول: «إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب»، وكتب عبد الله بن سعد إلى عثمان: «إن عَمراً كسر عليّ الخراج»، فعزل عثمان عمراً، واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وَخَرَاجها[3].

ولم يعد إلى مصر من جديد حتى سنة ثمان وثلاثين الهجرية[4]، فقد سيّره معاوية بن أبي سفيان إلى مصر، فاستنقذها من محمد بن

(١) الطبري (٤/٢٤٢)، وابن الأثير (٣/٧٩)، والعبر (١/٢٧).

(٢) الطبري (٤/٢٥٣)، وابن الأثير (٣/٨٨)، والعبر (١/٢٩)، والاستيعاب (٣/١١٨٨).

(٣) الطبري (٤/٢٥٦)، وابن الأثير (٣/٨٨)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١/١٣٤).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٧٤-١٧٥).

أبي بكر الصديق، عامل عليّ بن أبي طالب على مصر، فاستعمله معاوية عليها إلى أن مات[1].

لقد عمل عمرو على مصر لعمر بن الخطاب سنتين، ولعثمان بن عفان أربع سنين إلا شهرين، ولمعاوية بن أبي سفيان سنتين إلا شهراً[2]، ثم مات عمرو، فانتهت بموته حياة فاتح من أعظم الفاتحين، وإداري من ألمع الإدرايين، بعد أن نهض بواجبه في الفتح والإدارة على أحسن وجه، إذ لا يماري أحد في أهمية فتوحاته، وبقائها على الدهر، ولا يجادل عاقل في قابليته الإدارية الفذّة، وقد سجّل عمرو صفحات ناصعة في تاريخ الإسلام، فاتحًا وإداريًا، كما أن صفحاته مشرقة في سائر تواريخ الأمم الأخرى، شرقية وغربية، وقديمًا وحديثًا.

٢ ـ العَالِم

كان عمرو، عالمًا من علماء الدين الحنيف، قدّمه في العلم ـعلى الرغم من تأخر إسلامهـ ذكاؤه، وحرصه على التعلّم من النبي ﷺ، وأصحابه العلماء، وإتقانه القراءة والكتابة، وكان إتقانهما في أيامه نادراً في أمة تفشّت فيها الأمية، فقد كان عمرو أحد كتاب النبي ﷺ[3].

(١) طبقات ابن سعد (٤٩٣/٧)، وأسد الغابة (١١٧/٤)، والإصابة (٣/٥)، والاستيعاب (١١٨٨/٣). وانظر استعادته مصر في: الطبري (٩٤/٥-١٠٥).

(٢) الطبري (١٨١/٥).

(٣) العقد الفريد (١٦٨/٤).

وقد رَوىٰ عن النبي ﷺ تسعةً وثلاثين حديثًا[1]، أو سبعةً وثلاثين حديثًا[2]، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة أحاديث، ولمسلم حديثان، وللبخاري بعض حديث[3]، وروى عنه أبو عثمان النَّهدي، وقيس بن أبي حازم، وعروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن شَماسة (بفتح الشين وضمّها)[4]، كما روى عنه ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص[5]، ومولاه أبو قيس، وعلي بن رَباح اللَّخْمي، ومحمد بن كعب القُرظي، وعمارة بن خُزيمة بن ثابت، وغيرهم، وروى عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها[6].

وكان متفقهًا في الدين، يدل على ذلك معاملته للأسرى والسبايا، وفرضه الجزية والخراج، كما تدل على ذلك نصوص العهود، التي عقدها مع أهل البلاد المفتوحة، وبخاصة في مصر، ومعاملته أهل الذمة، وعرضه تعاليم الفتح في الإسلام: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

وكان مجتهداً في الدين؛ اجتهد على عهد النبي ﷺ، واجتهد بعد التحاق النبي عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلىٰ.

---

(١) أسماء الصحابة الرواة -ملحق بجوامع السيرة (٢٨٠)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١)، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١).

(٥) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

(٦) تهذيب التهذيب (٨/٥٦١).

ومن اجتهاده على عهد النبي ﷺ، ما رواه الإمام احمد بن حنبل في مسنده، قال عمرو: «احتلمت في ليلة باردة، شديدة البرد، فأشْفَقْتُ إن اغْتَسَلْتُ ان أهْلِك، فتيمَّمْتُ، ثم صليتُ بأصحابي صلاةَ الصُّبح، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، ذكرتُ ذلك له، فقال: «ياعمرو! صليتَ بأصحابك وأنت جُنُب؟!» فقلتُ: نعم يا رسولَ الله! إني احتلمتُ في ليلةٍ باردةٍ، شديدة البَرْد، فأشفقتُ إن اغتسلتُ أن اهلك، وذكرتُ قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء:٢٩)، فتيمَّمتُ ثم صليت! فضحك رسولُ الله ﷺ، ولم يقلْ شيئًا»[١]، وكان ذلك في سرية ذات السلاسل، التي كان من جنودها أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، رضي الله عنهم[٢].

وكان عمرو يقول: «عَقَلْتُ عن رسولِ الله ﷺ ألفَ مَثَل»[٣].

أما اجتهاد عمرو بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، ففي سنة ثماني عشرة الهجرية، كان طاعون عَمْواس، فلما اشتعل قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا، فقال: « أيها الناس إنّ هذا الوَجَع رحمةُ ربِّكُم،

---

(١)،(٢) انظر مغازي الواقدي (٧٦٩/٢-٧٧٤)، وطبقات ابن سعد (١٣١/٢)، وسيرة ابن هشام (٢٩٨/٤)، والطبري (٣٢/٣-٣٣)، وابن الأثير (٢٣٢/٢)، والمحبر (١٢١)، وأنساب الأشراف (٣٨٠/١-٣٨١)، وعيون الأثر (١٥٧/٢)، وانظر حديث صلاة عمرو في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٣/٤).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢٠٣/٤).

ودعوةُ نَبِيِّكُم محمد ﷺ، وموتُ الصالحين قَبْلَكُم، وإن أبا عبيدة، يسألُ اللهَ أن يقسم له منه حظَّه»، فطُعن، فمات. واستُخلف على الناس مُعاذ بن جبل[1] بعده، فقام خطيبًا، فقال: «أيها الناس! إنّ هذا الوَجَع رحمةُ ربكم، ودعوةُ نبيكم، وموتُ الصالحين قَبْلَكم، وإنّ معاذًا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظهم»، فطُعن ابنه عبد الرحمن ابن معاذ، فمات، ثم قام فدعا به لنفسه، فطُعن في راحته، فلقد رأيته ينظر إليها، ثم يُقَبِّل ظهر كفّه، ثم يقول: ما أحب أن لي بما فيكِ شيئًا من الدنيا»، فلما مات؛ استُخلف على الناس عمرو ابن العاص، فقام خطيبًا في الناس فقال: «أيها الناس! إن هذا الوجع إذا وقع، فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجبَّلوا[2] منه في الجبال»، فقال أبو وائلة الهُذَلي[3]: «كَذَبْتَ، والله لقد صحبتُ رسول الله ﷺ، وأنت شر من حماري هذا[4]»، قال عمرو: «والله ما أردّ عليك ما تقول! وايمُ الله لا نقيم عليه»، ثم خرج، وخرج الناس فتفرّقوا، ورفعه الله عنهم، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص، فوالله ما كرهه[5].

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: سفراء النبي ﷺ.

(٢) تجبّل القوم: أي دخلوا في الجبل.

(٣) انظر سيرته في الإصابة (٧/٢١١-٢١٢).

(٤) يريد أنه كان كافرًا ولم يسلم بعد. و«كذبتَ»: أي أخطأتَ، قال في لسان العرب (مادة: كذب): «وقد استعملت العربُ الكذبَ في مواضع الخطأ» ثم أورد من الشواهد ما يدلُّ على ذلك.

(٥) الطبري (٤/٦١-٦٢).

وقد اختلف هؤلاء الصحابة الكرام في اجتهادهم، ولكن عمر بن الخطاب أقرّ عمراً على اجتهاده.

وقد كان عمرو يروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم واجتهد، ثم أخطأ، فله أجر**»[1].

وعن عمرو بن العاص، قال: «جاء رسولَ الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: «**اقض بينهما يا عمرو!**» فقال: أنت أولىٰ بذلك مِني يا رسول الله! قال: «**وإن كان**». قال: فإذا قضيتُ بينهما فما لي؟ قال: «**إن أنت قضيتَ بينهما، فأصبتَ القضاء، فلك عَشْرُ حسنات، وإن أنت اجتهدتَ فأخطأتَ، فلك حَسَنَة**»[2]. وتكليفه بالقضاء من النبي ﷺ، دليل على متانته في الفقه، وذكائه، وحصافته.

وكان عمرو من أصحاب الفُتيا من الصحابة[3]، وكفى بذلك دليلاً على علمه.

وقد وصفه رجلٌ فقال: «صحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيتُ رجلاً أبينَ قرآناً، ولا أكرمَ خُلُقاً، ولا أشبهَ سريرة بعلانية منه»[4].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٥).

(٣) أصحاب الفتيا من الصحابة ومَن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا -ملحق بجوامع السيرة- (٣٢٠).

(٤) الإصابة (٥/٢).

لقد كان عمرو عالمًا من علماء الدين، تلقّى علمه من النبي ﷺ، وكان قارئًا للقرآن الكريم، محدثًا، فقيهًا، مجتهدًا في الدين، من أصحاب الفتيا من الصحابة، ومن قضاة المسلمين الأولين.

٣ - الكاتب

كان عمرو كاتبًا بليغًا، في نثره ونظمه، ولعلّ كتابه إلى عمر بن الخطاب يصف فيه مصر بعد فتحها، يُعدّ من أبلغ الرسائل، ليس في العربية فقط، بل في كل لغات العالم[١].

فقد كتب عمر بن الخطاب، إلى عمرو: «أنْ صِفْ لي مصر»، فكتب إليه عمرو: «ورد كتابُ أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه- يسألني عن مصر: اعلم يا أميرَ المؤمنين! أن مصر قرية غَبْراء[٢]، وشجرة خضراء، طولُها شهر، وعَرْضها عَشْر[٣]، يكنُفُها جَبَل أغبر، ورَمْل أعْفَر[٤]، يخطُّ وسَطَها نيلٌ مباركُ الغُدُوات، ميمونُ الرَّوْحات، تجري فيه الزيادة والنقصان، كجَرْي الشمس والقمر، له أوانٌ يدرُّ حِلابُه[٥]،

---

(١) نشر نص ترجمة كتاب عمرو الكاتب الفرنسي (أوكتاف أوزان)، ووصفه بأنه من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم. انظر تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم (١٦٩).

(٢) غبراء: وصف من الغُبرة، لون الغبار، مثّل مصر بقرية غبراء، وواديها الخصيب بشجرة خضراء.

(٣) المراد عشرة أيام، والمعنى أن عرضها أقل من طولها.

(٤) أعفر: رمل أحمر، والأعفر أيضًا: الأبيض وليس بالشديد البياض.

(٥) الدَرّ بالفتح: اللبن. والحلاب: استخراج ما في الضرع من اللبن كالحلب، والمعنى: له وقت يغزر فيه ماؤه ويفيض.

ويكثر فيه ذُبابه، تمدّه عيون الأرض وينابيعها، حتى إذا ما اصْلَخَمَّ عَجَّاجُه[1]، وتعظّمت أمواجُه، فاض على جانبيه، فلم يمكن التخلّص من القُرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخِفاف القوارب، وزَوَراق كأنهنّ في المخايل وُرْقُ الأصائل[2]، فإذا تكامل في زيادته نَكَص على عَقِبيه كأول ما بدأ في جَرْيته، وطَمَا في دِرَّته[3]، فعند ذلك تخرج أهلُ مِلَّة محقورة، وذمّة مخفورة، يحرثون في الأرض، ويبذرون في الحَبّ، يرجون بذلك النّماء من الرّب، لغيرهم ما سَعَوا من كدِّهم، فناله منهم بغير جِدّهم، فإذا أحدق[4] الزرع وأشرق، سقاه النّدى، وغذاه من تحته الثّرىٰ، فبينما مصرُ يا أميرَ المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عَنْبَرة سوداء، فإذا هي زُمُرُّدة خضراء، فإذا هي ديباجة رَقْشَاء[5]، فتبارك اللهُ الخالق لما يشاء، والذي يُصلحُ هذه البلاد وينمّيها، ويُقرّ قاطنيها فيها، ألاّ يُقْبَل قول خسيسها في رئيسها، والاّ يُسْتَادى[6] خراجُ ثمرة إلا في أوانها، وان يُصرْف ثلثُ ارتفاعها في عمل جسورها وتُرعها، فإذا تقرّر الحال مع العمّال على هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، واللهُ تعالى يوفّق في المبدأ والمآل». فلما ورد

(١) اصلخمّ: اشتدّ، بعير مصلخم: أي جسيم شديد ماضٍ. ونهر عجّاج: أي كثير الماء، تسمع لمائه عجيجًا، أي صوتًا.

(٢) المخايل: جمع مخيلة كمعيشة، خال الشيء مخيلة: ظنّه. والأصائل: جمع أصيل، وهو العشي، والورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة، في لونها بياض إلى سواد.

(٣) نكص: رجع. وطما يطمو ويطمى: علا. والدِّرّة بالكسر: اسم من الدّرّ بالفتح، وهو اللبن كما تقدم.

(٤) أحدق: أي استدار. وأشرق: تفتح نوره.

(٥) الديباجة: الخد. والرقشاء: المنقطة بسواد وبياض.

(٦) أي يطلب أداءه.

الكتاب على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: «لله دَرُّك يا ابن العاص! لقد وصفت لي خبراً، كأني أشاهده»[١].

وليست هذه الرسالة أبلغ رسائل عمرو، ولكنّها من أبلغها، وأمثالها من رسائله كثير.

وفي سنة ثمان وعشرين الهجرية، فتح معاوية بن أبي سفيان جزيرة (قُبْرُس) المعروفة في البحر الأبيض المتوسط، وكان معاوية قد لجّ على عمر بن الخطاب في غزو البحر، وقرب الروم من مدينة حِمْص، وقال: «إن قرية من قرى حِمص ليسمع أهلها نُباح كلابهم، وصياح دجاجهم»، حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب إلى عمرو بن العاص: «صف لي البحر وراكبه، فإنّ نفسي تنازعني إليه»، فكتب عمرو إلى عمر: «إني رأيت خَلْقًا كبيراً يركبه خلْقٌ صغير، إن ركَنَ[٢] خَرَق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة، والشكّ كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غَرِق، وإن نجا بَرِق[٣]»، فلما قرأه عمر، كتب إلى معاوية: «لا والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلمًا أبداً»[٤].

إنّ بلاغته مؤثّرة في العقول والقلوب معًا، ولو اقتصر همّ عمرو على النثر الفني، لكان له شأن عظيم من كتاب العربيّة اللامعين.

---

(١) النجوم الزاهرة (١/٣٢-٣٣).

(٢) ركن: سكن.

(٣) البرق: الحيرة والدهش.

(٤) الطبري (٤/٢٥٨-٢٥٩)، وابن الأثير (٣/٩٥)، وانظر العقد الفريد (١/٨٩)، وعيون الأخبار (١/١٣٧).

٤ ـ الشاعر

رُويت لعمرو آثار في الشعر، تسلكه بين الشعراء، قال في يوم أُحُد، وكان يومئذ مُشركًا:

خَرَجْنا من الفَيْفَا عليهم كأنَّنا
مع الصُّبْحِ من رَضْوَى الحَبِيكُ المُنَطَّقُ (١)

تَمَنَّتْ بنو النَّجَّار جَهْلاً لقاءَنَا
لَدى جَنْبِ سَلْعٍ والأَمانِيّ تَصْدُقُ (٢)

فما راعَهُمْ بالشرِّ إلا فُجَاءَةً
كراديسُ خَيْلٍ في الأزِقّة تَمْرُقُ (٣)

أرادوا لِكَيْما يَسْتَبِيْحُوا قِبَابنا
وَدُونَ القِبَابِ اليومَ ضَرْبٌ مُحَرِّقُ

وكانت قِبَابًا أُومِنَت قَبْلَ ما تَرى
إذا رَامَها قَومٌ أُبِيْحُوا وأُحْنِقُوا (٤)

كأنّ رُءوسَ الخَزْرَجِيِّين غُدْوَةً
وأيمانَهم بالمَشْرَفِيَّة بَرْوَقُ (٥)

(١) الفيفا: الأرض القفر، التي لا تنبت شيئًا، وأصله ممدود، وقد قصره هنا حين اضطر إلى ذلك. ورضوى: اسم جبل. والحبيك: الذي فيه طرائق. والمنَطَّق: المحزم الشديد.

(٢) سلع: اسم جبل قريب من المدينة.

(٣) الكراديس: جماعات الخيل. وتمرق: تخرج، كما يمرق السهم من الرمية.

(٤) أحنقوا: للمجهول، مثّل بهم ما يغيظهم ويغضبهم يريد أنهم أعزة لا يقدر أحد عليهم.

(٥) البروق: نبات له أصول يشبه البصل، يريد أنهم ضعاف، انظر نص الأبيات في سيرة ابن هشام (١١٠/٢-١١١).

* وقال في يوم أُحُد أيضًا:

لمّا رأيتُ الحَرْبَ يَنْزو شَرُّها بالرَّضْفِ نَــزْوَا[1]

تَنازَلَتْ شَهْبَاءُ تَلْحُو الناسَ بالضَّرَّاءِ لَحْوَا[2]

أَيْقَنْتُ أنّ المـوتَ حَقٌّ والحيـاةُ تكـونُ لَغْــوَا

حَمَّلْتُ أثوابي على عَتَدٍ يَبُذُّ الخَيْلَ رَهْوَا[3]

سَلِسٍ إذا نَكَّبْنَ في البيداء يَعْلُو الطَّرْفَ عُلْوا[4]

وإذا تَنَزَّلَ ماؤُهُ من عِطْفِهِ يَزْدَادُ زَهْـوا[5]

رَبِذٍ كَيَعْفُورِ الصَّرِيمَةِ رَاعَهُ الرَّامونَ دَحْـوا[6]

شَنِجٍ نَسَاهُ ضابِطٍ للخَيْلِ إِرْخَـاءً وَعَـدْوا[7]

ففدًى لَهُمْ أُمِّي غَداةَ الرَّوعِ إذ يَمشُونَ قَطْوا[8]

سَيْرًا إلى كَبْشِ الكتيبةِ إذْ جَلَتْهُ الشَّمسُ جَلْوا[9]

---

(١) ينزو: يرتفع ويشب. والرضف: الحجارة المحماة بالنار.

(٢) شهباء: يعني بها كتيبة كثيرة السلاح، وتلحو الناس، تضعفهم وتقلل من شأنهم.

(٣) العتد: الفرس الشديد. ويبذ الخيل: يسبقها. والرهو: الساكن.

(٤) سلس: سهل المقاد لا يجمح. والبيداء: القفر. ويعلو الطرف: يسبقه، يريد أنه سريع.

(٥) تنزّل ماؤه: عرقه. وعِطفه: جانبه. والزهو: الإعجاب والتكبّر، يريد أنه لا يضعف ولا يفتر مهما جرى.

(٦) رَبِذ: سريع خفيف القوائم في مشيه. واليعفور: ولد الظبية. والصريمة: الرملة المنقطعة. وراعه: أخافه وأفزعه. والدحو: الانبساط. يصف فرسه بأنه شديد السرعة، فكأنه حين يجري ظبي في منقطع الرّمل، قد أفزعه الرّماة، ورأى الصيادين، فهو يجري جريًا متتابعًا لا يلوي على شيء.

(٧) شَنِج: منقبض. والنسا: عرق مستبطن الفخذين. وضابط: أي ممسك. والإرخاء والعدو: ضربان من السير.

(٨) القطو: مشي فيه تبختر كمشي القطاة.

(٩) كبش الكتيبة: رئيسها. وجلّته: أبرزته، انظر سيرة ابن هشام (٣/١١٦-١١٧).

* وكان عُمارة بن الوليد، مع عمرو في أرض الحبشة، وعُمارة أخو خالد بن الوليد، فاختلف عمرو وعُمارة[1]، فقال عمرو:

تَعَلَّمْ عُمَارُ انّ من شرِّ شُبْهَةٍ[2]
لمثلِكَ انْ يُدْعى ابن عَمٍ له انتمى[3]
لئن كُنتَ ذا بُرْدَيْنِ أحْوى مرجَّلاً
فلستَ براءٍ لابن عَمك مُحرما
إذا المرء لم يتركْ طعامًا يُحبّهُ
ولم يَنْهَ قلبًا هائمًا[4] حيث يَمَّما
قَضَى وَطَرًا منه[5] وغادر سُبَّةً
إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تملأ الفَما[6]

* وقال عمرو في حرب صفّين:

شُبّتِ الحربُ فأعددتُ لها
مفرغَ الحارك مَحْبوكَ السَّبَجْ[7]

(١) انظر التفاصيل في: أنساب الأشراف (١/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) في أنساب الأشراف (١/٢٣٣): شيمة.

(٣) في أنساب الأشراف: أنتما، وهي قراءة غير صحيحة.

(٤) في أنساب الأشراف: غاويًا.

(٥) في أنساب الأشراف: منها.

(٦) أنساب الأشراف (١/٢٣٣)، والحلّة السيراء (١/١٥).

(٧) الحارك من الفرس: كاهله. والسَّبَج: خرز أسود.

يَصِـلُ الشَّدَّ بشـدٍّ فـإذا

وَفَتِ الخيل من الشدِّ مَعَجْ[1]

جُرْشَـعٌ أَعْظَمُـهُ جَفْرَتُـهُ

فإذا ابتلَّ من الماءِ حَدَجْ[2]

* وكتب عمرو إلى معاوية بن أبي سفيان:

مُعاويَ لا أُعطيك دِيني ولم أَنَلْ

به منك دُنْيا فانْظُرَنْ كيف تَصْنَعُ ؟

وما الدِّينُ والدنيا سواءٌ وإنّني

لآخـذ ما تُعطـي ورأسـي مُقَنَّـعُ

فإنْ تُعطني مِصْرًا فَأَرْبِحْ بِصَفْقَةٍ

أخذتَ بها شيخًا يَضُرّ ويَنْفَعُ[3]

* ومما يُعزى إلى عمرو قوله:

وأُغْضي على أشياءَ لو شِئتُ قُلْتُها

ولو قُلْتُها لم أُبْقِ للصُّلحِ موضِعا

---

(١) معج: أسرع.

(٢) الحلة السيراء (١/١٥-١٦)، ولا وجود لهذه الأبيات في كتاب: وقعة صفين، لنصر بن مزاحم المنقري (طبعة عبد السلام هارون) القاهرة ١٣٦٥هـ.

(٣) العقد الفريد (٤/٣٤٥).

فإنْ كان عُودِي من نُضارٍ فإنني

لأَكْرَهُ يومًا أنْ أُحطِّمَ خِرْوَعا[1]

تلك نماذج قليلة من شعره، تدلّ على قابليته الشعرية المتميزة، وثراء رصيده اللّغوي بالكلمات العربية الفصحى الأصيلة، ولعّله لو تفرّغ للشعر، ولم تشغله حوادث الأيام بالحرب، والسياسة، والإدارة، لكان له شأن مرموق بين الشعراء الفحول.

وكان يَروي الشعر، ويلقيه على الأسماع، حين يجد إلى ذلك سبيلاً، ومن مَنقُوله لا من مَقُوله، ما ذكره لمعاوية بن أبي سفيان، أن بكّارة الهلالية[2]، قالت:

يا زيدُ دونك فاسْتَشِرْ من دارنا

سَيْفًا حُسَامًا في التراب دَفِينا

قد كنتُ أَذْخَرُه ليومِ كريهةٍ

فاليوم أَبْرَزَهُ الزَّمانُ مَصُونا[3]

ومن النادر أن يقول المرء شعراً، إلا إذا حفظ كثيراً من الشعر ورواه.

(١) الخروع: كل نبت ضعيف ينثني، وانظر مصدر البيتين في: الحلة السيراء (١/١٧).

(٢) انظر قصة وفادتها على معاوية بن أبي سفيان في: العقد الفريد (٢/١٠٤-١٠٥).

(٣) العقد الفريد (٢/١٠٥).

٥ ـ الخطيب

كان عمرو خطيبًا مصقعًا، من ألمع خطباء الصحابة، رضي الله عنهم، وقد شهد أحدهم[١] خطبة لعمرو، فقال: «رحتُ أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة تهجيراً[٢]، وذلك آخر الشتاء بعد حَميم النصارى[٣] بأيام يسيرة، فأطلنا الركوع، إذ أقبل رجال بأيديهم السِّياط، يزجرون الناس، فَذُعِرْتُ! فقلت: يا أبت! مَن هؤلاء؟! فقال: يا بُنيّ! هؤلاء الشُّرَط. فأقام المؤذنون الصلاة، فقام عمرو بن العاص على المنبر، فرأيت رجلاً رَبْعَةً، قصير القامة، وافر الهامة، أَدْعَج[٤]، أَبْلَج[٥]، عليه ثياب موشيّة، كأن به العقْيَان[٦] يأتلق، عليه حُلّة وعمامة وجُبّة، فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً، وصلى على النبي ﷺ، ووعظ الناس، وأمرهم ونهاهم، فسمعته يحض على الزكاة، وصِلَة الأرحام، ويأمر بالاقتصاد، وينهى عن الفُضول[٧]، وكثرة العيال، وقال في ذلك: «يا معشر الناس! إياكم وخلالاً أربعة، فإنها تدعو إلى النَّصَب بعد الراحة،

---

(١) هو بَحير بن ذاخِر المَعَافِري، انظر فتوح مصر والمغرب (١٨٩)، والنجوم الزاهرة (٧٢/١).

(٢) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر، وتهجّر: سار في الهاجرة.

(٣) هو خميس العهد، وحميم النصارى: الفطاس الذي يقع في (١١) طوبة.

(٤) أدعج: أسود، ويقال: رجل أدعج اللون.

(٥) أبلج: بَعُد ما بين حاجبيه.

(٦) العقيان: الذهب الخالص.

(٧) الفضول: جمع فضل، وهو الزيادة على الاقتصاد.

وإلى الضيق بعد السَّعة، وإلى المذلّة بعد العزة، إياكم وكثرة العيال، وإخفاض الحال، وتضييع المال، والقِيل بعد القال، في غير دَرَك [1] ولا نوال[2]، ثم إنّه لابد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه، والتدبير لشأنه، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها، ومَن صار إلى ذلك، فليأخذ بالقَصْد والنّصيب الأقل، ولا يُضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه، فيحُور[3] من الخير عاطلاً، وعن حلال الله وحرامه غافلاً.

«يا معشر الناس! إنه قد تدلّت الجوزاء، وذَكَتِ الشّعْرى، وأقلعت السماء، وارتفع الوباء، وقلّ الندى، وطاب المَرْعى، ووضعت الحوامل، ودرجت السّخائل[4]، وعلى الرّاعي بحسن رعيته حُسنُ النظر، فحَيَّ لكم على بركة الله إلى ريفكم، فنالوا من خيره، ولبنه، وخِرافه، وصيده، وأربِعوا خيلكم، وأسمنوها، وصونوها، وأكرموها، فإنها جُنّتَكم[5] من عدوكم، وبها مغنامكم، وأنفالكم، واستوصوا بمن جاورتموه من القِبط خيراً، وإياكم والمشمومات والمعسولات، فإنهن يُفْسدن الدّين، ويُقصِّرنَ الهِمم[6]».

---

(١) درك: تَبَعة.

(٢) نوال: النصيب والعطاء.

(٣) يحور: يرجع، وفي التنزيل العزيز: ﴿إنّه ظَنّ أن لن يَحُور﴾ (الانشقاق:١٤).

(٤) السخائل: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى، من المعز والضأن.

(٥) الجنّة: الترس.

(٦) فتوح مصر والمغرب (١٨٩-١٩٠)، والنجوم الزاهرة (٧٢-٧٣).

والذي يقرأ هذا الخطاب بإمعان، يتلمس بالإضافة إلى بلاغته وبيانه المشرق، وإيجازه، ووضوح مقاصده، اهتمام عمرو برعيّته، وتوجيههم إلى الصلاح والخير، واهتمامه بالناحيتين الاجتماعية والاقتصادية للمواطنين، فهو بحق رجل دولة بكل معنى الكلمة، يأمر الناس بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويشعر بمسؤولياته في توجيههم، توجيهًا سليمًا، يفيدهم في دنياهم وآخرتهم.

ومن نماذج خطبه في الحرب، خطبته في صِفِّين، فقد أراد معاوية ابن أبي سفيان أن يخطب بصِفِّين، فقال له عمرو: «دعني أتكلم، فإن أتيتُ على ما تريد، وإلا كنتَ من وراء ذلك»، فأذن له، وتكلّم عمرو بكلمات، قال: «قدّموا المُسْتَلْئِمَةَ[1]، وأخّروا الحُسَّر[2].. كونوا مِقَصَّ الشَّارب[3].. أعيرونا أيديكم ساعة.. قد بلغ الحقُّ مَفْصِلَهُ[4]، إنما هو ظالم، أو مظلوم»[5].

ولا أعرف خطابًا في مثل هذا الموقف، أوضح بيانًا، وأجزل عبارة، وأوجز كلامًا، وأصحّ منطقًا، مثل هذا الخطاب، الذي اختصر به تعبية الميدان بكلمات معدودات.

---

(١) المستلئمة: الطائفة التي عليها اللأم: وهي الدروع.

(٢) الحُسَّر: جمع حاسر، والحاسر من الجنود: مَن لا درع له.

(٣) مقص الشارب: يريدكونوا في صفوف متراصة باستواء الشارب عند قصّه وتعديله.

(٤) المفصل: ملتقى كل عظمين في الجسد، أي بلغ الحق مداه.

(٥) عيون الأخبار (٢/٤١٥).

٦ - الداهيــة

كان الإمام الشعبي رحمه الله يقول: دُهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمُغيرة بن شُعبة[١]، وزياد[٢]. فأما معاوية فللحلم والأناة، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللكبير والصغير»[٣].

وقالوا: «الدُّهاة أربعة: معاوية للرَّوِيَّة، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة للمُعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة»[٤].

وكان من دهائه، دخوله على الأرطبون، وتخلّصه منه، بعد أن انكشف أمره للأرطبون، فلما سمع عمر بن الخطاب بخديعة عمرو للأرطبون، قال: «لله دَرُّ عمرو»، كما قال عنه الأرطبون: «هذا أدهى الخَلْق»[٥].

ولما فتح عمرو قيسارية من أرض فلسطين، سار حتى نزل غزة، فبعث إليه عِلْجُها: «أن ابعث إليّ رجلاً أكلمه»، وفكّر عمرو، فقال: «ما لهذا أحد غيري».

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١-٤٥٠).

(٢) زياد بن أبي سفيان: انظر سيرته في أسد الغابة (٢١٥/١).

(٣) الاستيعاب (١١٨٨/٣).

(٤) العقد الفريد (٧/٥).

(٥) انظر التفاصيل في الطبري (٦٠٥/٣-٦٠٧).

وخرج عمرو، حتىٰ دخل على العِلْج، فكلّمه، فسمع كلامًا لم يسمع قط مثله، فقال العِلْج: «حدِّثني، هل في أصحابك أحد مثلك؟» قال: «لا تسأل عن هذا، إنّي هيّن عليهم، إذ بعثوا بي إليك، وعرّضوني لما عرّضوني له، ولا يَدْرون ما تصنع بي!» فأمر له بجائزة وكُسْوة، وبعث إلى البوّاب: «إذا مرّ بك، فاضرب عُنُقَه، وخذ ما معه».

وخرج عمرو من عنده، فمرّ برجل من نصارى غَسَّان، فعَرفه، فقال: «يا عمرو! قد أحسنت الدّخول، فأحسن الخروج».. ففطن عمرو لما أراده، فرجع، وقال له الملك: «ما ردّك إلينا؟» فقال: «نظرت فيما أعطيتني، فلم أجد ذلك يَسع بني عمّي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم، تعطيهم هذه العَطِية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد»، فقال: «صدقت! اعْجَل بهم»، وبعث إلىٰ البوّاب: «أن خلّ سبيله»، وخرج عمرو، وهو يلتفت، حتى إذا أَمِنَ، قال: «لا عُدْتُ لمثلها أبداً».. فلما صالحه عمرو، ودخل عليه العِلْج، قال له: «أنت هو!!» قال: «نعم، على ما كان من غَدْرك»[1].

وكرّر عمرو هذه العملية مرة ثالثة في أيام فتح مصر، فحين استعصى عليه فتح حِصن بابليون، أقدم على دخول الحصن، ودخل على صاحبه، فتناظرا في شيء مما هم فيه، فقال عمرو: «أَخْرُجُ أستشير أصحابي».

---

(١) العقد الفريد (١/١٢٤-١٢٥).

وكان صاحب الحِصن أوصى الذي على الباب، إذا مَرَّ به عمرو، أن يُلْقي عليه صخرة فيقتله، فمرّ عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب، فقال له: «قد دخلت، فانظر كيف تخرج».

ورجع عمرو إلى صاحب الحصن، فقال له: «إني أريد أن آتيك بنفرٍ من أصحابي، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعتُ»، فقال العِلْج في نفسه: «قَتْلُ جماعة أحبّ إليّ من قَتْلِ واحد»، فأرسل إلى الذي كان أَمَرَهُ بما أَمَرَهُ من قتل عمرو: «ألا تَعْرِضْ له»، رجاء أن يأتيه بأصحابه فيقتلهم.

وخرج عمرو[1]، وتخلّص من موتٍ أكيدٍ بِدَهَائه.

ومهما قيل في إثبات هذه المحاولات الثلاث، أو نفيها، فإنها تدل على ما عُرف عنه من دهاء، إذ لم تنسب مثل هذه الحالات لغيره من القادة والولاة.

وخطب عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أم كُلثوم ابنة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فقالت أم كلثوم: «لا حاجة لي فيه، إنّه خَشِنُ العيش، شديد على النساء»، وأرسلت عائشةُ أم المؤمنين إلى عمرو، فقال: «أنا أكفيك».

وأتى عُمَرَ، فقال: «بلغني خبر أعيذك بالله منه»، قال: «ما هو؟!» قال: «خطبتَ أُمَّ كلثوم بنت أبي بكر[2]؟» قال: «نعم

(١) فتوح مصر والمغرب (٩٣).

(٢) أم كلثوم بنت أبي بكر، انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٨/٤٦٢)، وأسد الغابة (٥/٦١١).

أفرغبتَ بي عنها، أم رغبت بها عني؟!» قال: «ولا واحدة، ولكنها حَدَثَة نشأت تحت كَنف أمير المؤمنين في لينٍ ورفق، وفيك غِلظة، ونحن نَهَابُك، وما نقدر أن نردَّك عن خُلُق من أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء، فسطوتَ بها، كنتَ قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك»، فقال: «وكيف بعائشة، وقد كلّمتها؟» قال: «أنا لك بها، وأدلّك على خيرٍ منها، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب[1]، تعلق بها بسبب من رسول الله ﷺ»[2]، وهكذا حقّقَ رغبةَ أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق بدهائه، من غير أن يزعج عمر بن الخطاب.

وقد قال معاوية بن أبي سفيان يومًا لعمرو: «ما بلغ عقلك؟»، فقال: «ما دخلتُ في شيء قط إلا خرجتُ منه»[3]، وفي رواية أنه قال: «لم أدخل في أمر قطّ، فكرهته، إلا خرجتُ منه»، وكان يقول: «ليس العاقل، الذي يعرف الخير من الشر، ولكنّه الذي يعرف خيرَ الشرّين»[4].

لقد كان عمرو بحق: أحد الدُّهاة المقدّمين في المكر والرأي[5]، وكان من شجعان العرب، وأبطالهم، ودُهاتهم[6].

---

(١) أم كلثوم بنت أبي طالب، انظر سيرتها المفصلة في طبقات ابن سعد (٨/٤٦٣)، وأسد الغابة (٥/٦١٤)، والإصابة (٨/٢٧٥)، والاستيعاب (٢/١٩٥٤).

(٢) الطبري (٤/١٩٩-٢٠٠)، وابن الأثير (٣/٥٤-٥٥).

(٣) العقد الفريد (٢/٢٤٢).

(٤) عيون الأخبار (١/٢٨٠).

(٥) الاستيعاب (٣/١١٨٨).

(٦) أسد الغابة (٤/١١٧).

٧ ـ الحكيم

الحِكمة هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وهي العلم والتفقه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ (لقمان:١٢)، وهي الكلام الذي يَقِلُّ لفظه، ويَجِلُّ معناه.. والحكيم هو ذو الحِكْمة.

وقد كان عمرو حكيمًا حقًا في أقواله وتصرفاته.

ومن أقواله الحكيمة: «لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل»[١].

وقيل لعمرو: ما العَقْل؟، فقال: «الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان»[٢].

وقال: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرين»[٣].

وكان يقول: «اعمل لدُنياك عَمل من يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا»[٤].

---

(١) العقد الفريد (١/٣٣).

(٢) العقد الفريد (٢/٢٤١).

(٣) العقد الفريد (٣/١١).

(٤) العقد الفريد (٣/٢٧).

وقال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[1].

وسمع عمرو رجلاً يقول: «الرُّجلة[2] قطعة من العذاب»، فقال له: «لم تُحْسن، بل العذاب قطعة من الرُّجْلة»[3].

وكان يقول: «ثلاثة لا أناة فيهن: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميِّت، وتزويج الكُفء»[4].

وكان يقول: «ثلاثة لا أَمَلُّهم: جليسي ما فَهِمَ عني، ودابَّتي ما حملت رحلي، وثوبي ما سترني» وزاد آخر: «وامرأتي ما أحسنت عِشْرتي»[5].

وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو: «ما بقي من لذَّة الدنيا تلذُّه؟» قال: «محادثة أهل العلم، وخبرٌ صالح يأتيني من ضَيْعتي»[6].

وكان يقول: «ما استودعتُ رجلاً سِراً، فأفشاه، فلُمْته، لأني كنت أضيق صدراً منه، حين استودعته إياه، حتى أفشاه»[7].

وقال عمرو: «أكثروا الطعام، فوالله ما بَطِنَ[8] قوم قط، إلا فقدوا

---

(١) العقدالفريد (٦/٢٠٢).

(٢) الرُّجلة: المشي على الرجلين.

(٣) العقد الفريد (٦/٢٢٨).

(٤) العقد الفريد (٢/٢٥٧).

(٥) عيون الأخبار (١/٣٠٧).

(٦) عيون الأخبار (١/٣٠٩).

(٧) عيون الأخبار (١/٤٠)، والعقد الفريد (١/٦٥).

(٨) البطنة: الكظّة، وهي امتلاء البطن من الطعام، ومن أمثالهم: «البطنة تُذْهِب الفِطْنة».

بعض عقولهم، وما مضت عَزْمَةُ رجلٍ بات بطيناً»[1].

وقد ذكرنا أن خَصْمَين جاءا النبيَ ﷺ، فقال النبيُ ﷺ: **«اقضِ بينهما يا عمرو!»**[2]

وكان بين طَلْحة بن عُبيد الله [3]، والزبير بن العوام، مداراة في وادٍ بالمدينة، فقالا: «نجعل بيننا عمرو بن العاص»، فأتياه، فقال لهما: «أنتما في فضلكما، وقديم سوابقكما، ونعمة الله عليكما، تختلفان! وقد سمعتما من رسول الله ﷺ مثل ما سمعتُ، وحضرتما من قوله مثل الذي حضرتُ، فيمن اقتطع شِبراً من أرض أخيه بغير حق، أنه يطوّقه من سبع أرضين! والحَكَم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه، وذلك لأن الحَكَم إذا جار رُزئ دينُه، والمحكوم عليه إذا جِير عليه، رُزئ عَرَض الدنيا. إن شئتما فأدليا بحجتكما، وإن شئتما فأصلحا ذات بينكما»، فاصطلحا، وأعطى كلُّ واحدٍ منهما صاحبه الرضا[4].

وهكذا يقضي عمرو بين الخصوم، من دون أن يقضي، فيحلّ المشاكل بينهم والمعضلات، ويزيل مِن بينهم سوءَ التفاهم والخلافات، بأسلوب من الحكمة فريد.

---

(١) عيون الأخبار (٢١٩/٣).

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (٢٠٥/٤).

(٣) طلحة بن عبيد الله، انظر سيرته في طبقات ابن سعد(٢١٤/٣-٢٢٥)، وأسد الغابة (٥٩/٣-٦٢)، والإصابة (٢٩٠/٣-٢٩٢)، والاستيعاب (٧٦٤/٢-٧٧٠)، والرياض النضرة في مناقب العشرة (٣٢٤/٢-٣٥١).

(٤) عيون الأخبار (٧٠/١).

وقال يومًا لمعاوية: «إنَّ الكريمَ يَصُولُ إذا جَاع، واللئيمَ يَصُولُ إذا شَبِع، فَسُدَّ خَصَاصَةَ (حاجة) الكريمِ، واقمع اللئيم».

وقال معاوية لعمرو: «مَن أبلغ الناس؟» قال: «مَن كان رَأْيُهُ ردًّا لهواه»، فقال: «مَن أسخى الناس؟» فقال: «مَن بَذَلَ دُنْيَاهُ في صلاح دينه»، قال: «مَنْ أَشْجَعُ النَّاس؟» قال: «مَن ردَّ جَهْلَهُ بِحِلْمِه».

ومن غُرر أقواله: «مَوتُ أَلْفٍ من العِلْيَةِ، أَقَلُّ ضَرَرًا من ارتفاعِ واحدٍ مِنَ السّفلة».

وقال: «إذا أنا أفشيتُ سِرِّي إلى صديقي، فأذاعه فهو في حلٍّ»، فقيل له: وكيف ذلك؟! فقال: «أنا كنت أحق بصيانته»[1].

وما أصدق جابر بن عبد الله[2]، رضي الله عنه، في قوله: «صحبتُ عمر بن الخطاب، فما رأيت أقرأ لكتاب الله منه، ولا أفقه في دين الله منه، ولا أحسن مداراةً منه. وصحبتُ طلحة بن عبيد الله، فما رأيتُ رجلاً أعطى للجزيل منه من غير مسألة. وصحبتُ معاوية، فما رأيتُ رجلاً أحلم منه، وصحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيتُ رجلاً أبين، أو قال: أنصعَ ظرفًا منه[3]، ولا أكرم جليسًا، ولا أشبه سريرة

---

(١) زعماء الإسلام، للدكتور حسن إبراهيم حسن (١٣٦)، وانظر ما جاء في فصل: (من كلامه) في كتاب: ابن العاص، للأستاذ العقاد. والعِلْيَة: جمع العَلِيّ، يقال: هم عِلْيَة القوم: وجوه الناس.

(٢) جابر بن عبد الله، انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٣/٥٧٤)، وأسد الغابة (١/٢٥٦)، والإصابة (١/٢٢٢)، والاستيعاب (١/٢١٩)، والاستبصار (١٤٩).

(٣) تستعمل النصاعة في الظرف، والمراد ظهوره.

بعلانية منه، وصحبتُ المغيرة بن شُعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يُخْرَجُ منها إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلّها»[1].

وقد ذكرنا من أقواله الحكيمة، وتصرفاته المتزنة، وأفكاره الحصيفة، عند الحديث على دهائه، فالتفريق بين الداهية والحكيم بالنسبة لعمرو وأضرابه صعب، وقد فرّقت بينهما لغرض إلقاء الضوء على شخصيته العمليّة الناضجة، لا لغرض الفصل بين الخصلتين اللتين هما من خصال عمرو في حياته العملية، فهو حكيم داهية، أو داهية حكيم، أو هو حكيم لأنه داهية، وداهية لأنه حكيم: فقد كان من أدهى العرب، وأحسنهم رأيًا وتدبيراً[2].

٨ - الرّجل

مفتاح شخصية عمرو، أنه كان يستعرض جوانب (القوة) دائماً، ويوازن بين ما لدى أعدائه وأصحابه على حد سواء من (القُدرة) موازنة طويلة، حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي، فقد كان رجلاً يتقن الحساب، ويجيد المساومة... يقف ساكنًا، ويفكر طويلاً، ثم يساوم في حرص.

إنه يشترط دائماً... هكذا كان موقفه في كل أمر!!

(٢) النجوم الزاهرة (١/٦٤).

(٣) النجوم الزاهرة (١/١١٦).

وكان متواضعًا، يعرف الحق لأهله، فقد دخل عمرو مكة المكرمة، فرأى قومًا من قريش، قد تحلّقوا حَلقة، فلما رأوه، رموا بأبصارهم إليه، فعدل إليهم، وقال: «أحسبكم كنتم في شيء من ذِكْري»، قالوا: أجل! كُنا نُماثل بينك وبين أخيك هشام[1]، أيكما أفضل، فقال عمرو: «إنّ لهشام عليّ أربعة: أمّه ابنة هشام بن المغيرة، وأمّي مَن قد عرفتم، وكان أحبَ الناس إلى أبيه مني، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد، وأسْلَم قبلي، واستُشهد وبَقيتُ»[2].

وقالوا لعمرو: أنت خير، أم أخوك هشام بن العاص؟، قال: «أخبركم عنّي وعنه، عرضنا أنفسنا على الله، فقَبِله، وتركني[3]». وقد استشهد هشام في أجْنادين[4].

وكان يعتزّ بنفسه وبكرامته، فقد كتب عمر بن الخطاب، وهو على مصر، يسأله فيه عن أصل المال الذي جمعه، فغضب عمرو، وكان مما أجاب به: «... والله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك، وقد ائتمنتني، فإنّ لنا أحسابًا، إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك»[5].

---

(١) هشام بن العاص، انظر سيرته في طبقات ابن سعد (١٩١/٤)، وأسد الغابة (٦٣/٥)، والإصابة (٢٨٦/٦)، والاستيعاب (١٥٢٩/٤).

(٢) العقد الفريد (٢٨٩/٢).

(٣) طبقات ابن سعد (١٩٢/٤).

(٤) طبقات ابن سعد (١٩٣/٤).

(٥) العقد الفريد (٤٦/١-٤٨)، وانظر البلاذري (٣٠٧-٣٠٨).

اما مع معاوية بن أبي سفيان، فكان يرى نفسه لمعاوية نداً، فقد قال عمرو يومًا لمعاوية: «والله، ما أدري يا أمير المؤمنين، أشجاع أنت أم جبان؟» فقال معاوية:

شُجاعٌ إذا ما أمكنَتْنِي فرصةٌ
وإن لم تكن لي فُرصةٌ فَجَبانُ[1]

واجتمع عمرو مع معاوية مرّة فقال له معاوية: «مَن الناس؟» فقال: «أنا وأنت والمغيرة بن شعبة وزياد»، فقال معاوية: «كيف ذلك؟»، قال عمرو: «أما أنت فللتأنّي، وأما أنا فللبديهة، وأما المغيرة فللمعضلات، وأما زياد فللصغير والكبير». قال معاوية: «أما ذانك، فقد غابا، فهات بديهتك يا عمروا» قال: «وتريد ذلك؟» قال: «نعم»، قال: «فأَخْرِجْ مَن عندك»، فأخرجهم معاوية! فقال عمرو: «يا أمير المؤمنين! أسارّك!» فأدنى معاوية رأسَه منه، فقال عمرو: «هذا من ذاك! مَن معنا في البيت حتى أسارك!!»[2]

وكانَ إداريًا عادلاً، تحبّبَ إلى سكان البلاد، وردَّ إليهم حقوقَهم المُغْتَصَبَة، وقطعَ دابرَ ما كان يثيرُ تذمُّرَهم، وأبقى أرضَهُم على حالها، لم يقسمها بين الفاتحين من المسلمين[3]، وحَرِصَ على رفاهيةِ السكان،

---

(١) العقد الفريد (١/٩٩).

(٢) النجوم الزاهرة (١/١١٦).

(٣) البلاذري (٣٠١-٣٠٦).

وعدم إرهاقهم بالضرائب، فقد جبىٰ خَرَاجَ مصرَ وجزيتها ألفي ألف، وجباها خلفه عبدُ الله بن سعد بن أبي سَرح أربعة آلف ألف، فقال عثمان لعمرو: «إنَّ اللّقاح بمصر بعدك درَّت ألبانها»، فقال عمرو: «ذاك لأنكم أعجفتم أولادها»[1]، فأصبح أهل مصر في أيامه آمنين، على أموالِهم، ودمائهم، ونسائهم، وأولادهم، لا يُباع منهم أحد، وفَرَضَ عليهم خراجًا لا يُزاد عليهم، على أن يدفع عنهم خوف عدوهم[2]، ونفَّذَ فيهم وصية النبي ﷺ: **«إذا فتحتمْ مصر فاستوصوا بالقِبْطِ خيراً، فإنَّ لهم ذمَّة ورَحِمًا»**[3].

وكان عمرو رَبْعَة، قصير القامة، وافر الهامة، أَدْعَج، أَبْلَج[4]، يخضب بالسّواد[5]، ويهتم بملبسه، ومسكنه، ومأكله[6].

وأخو عمرو هو هشام، الذي استشهد يوم أجنادين، وكان صحابيًا، ولا عقب له، وأمه: أم حَرْملة بنت هشام بن المغيرة المخزومي، وكان هشام قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة في المرة الثانية، ثم قدم مكة للهجرة إلى المدينة، فحبسه أبوه، فلم يزل محبوسًا بمكة، حتى

---

(١) البلاذري (٣٠٣)، والمقريزي (١/ ٧٩٠).

(٢) البلاذري (٣٠٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٥١)، والنجوم الزاهرة (١/٢٨-٢٩). والحديث رواه الطبراني والحاكم من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٩٠)، وانظر الإصابة (٥/٢).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٤١)، وانظر أسد الغابة (٤/١١٧).

(٦) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) و(٢٤١)، وانظر أسد الغابة (٤/١١٧).

مات أبوه في آخر السنة الأولى من الهجرة، ثمّ حبسه قومه بعد أبيه، فلم يزل يحتال، حتى تخلّص وقدم على النبي ﷺ بعد الخندق، وجاهد حتى قُتل بالشام، وكان أصغر سنًا من أخيه عمرو، وكان يُكنى أبا العاص، فكنّاه رسول الله ﷺ: أبا مُطِيع[1].

وإخوة عمرو لأمه: عُروة بن أبي أُثاثة العَدَوي[2]، وأَرْنَب بنت عفيف بن العاص[3]، وعُقْبة بن نافع بن عَبد القيس بن لَقِيط، من بني الحارث بن فِهْر القُرشي[4].

وَلَدُ عمرو بن العاص: عبدُ الله بن عمرو، صحب رسول الله ﷺ، وروى عنه الحديث، وكان يصوم الدهر، ويقوم الليل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «صُم وأفطر، وصَلِّ ونَمْ». وأمّه: رَيْطة بنت مُنَبِّه بن الحجاج بن عامر[5]، وعبد الله من فضلاء الصحابة، وله بالوَهط[6] ومكة عَقِب كثير، يناهزون المائة[7].

(١) أنساب الأشراف (٢١٥/١)، وانظر الدرر (٥٣).

(٢) عروة بن أثاثة العدوي، انظر سيرته في أسد الغابة (٤٠٢/٣)، والإصابة (٢٣٦/٤)، وفيه: عروة ابن أبانة، والاستيعاب (١٠٦٤/٣).

(٣) أرنب بنت عفيف، انظر سيرتها في الإصابة (٤/٨)، وفيه: أرنب بنت عفيف بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

(٤) نسب قريش (٤٠٩)، وجمهرة أنساب العرب (١٦٣).

(٥) نسب قريش (٤١١).

(٦) الوهط: قرية بالطائف.

(٧) جمهرة أنساب العرب.

وولد عمرو أيضًا: محمد بن عمرو بن العاص، لا عَقِبَ له، وأمّه من بَلِيّ[1].

وتزوّج عمرو: أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعيط، وكانت من المهاجرات، فتزوّجها الزبير بن العوام، فطلّقها، فتزوّجها بعده عبد الرحمن بن عوف، فلما مات عنها، تزوّجها عمرو بن العاص[2].

وتزوّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العُزَّى، التي تزوجها بعد عُبيدة بن الحارث بن المطلب، ثم عبد الله بن أبي بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم محمد بن أبي بكر، فقُتل عنها بمصر، فتزوجها عمرو بن العاص[3].

وكانت رَيْطَة أم عبد الله بن عمرو بن العاص زوجته أيضًا كما ذكرنا.

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب نديمًا لعمرو بن العاص في الجاهلية[4]، مما يدل على أنه كان من الشخصيات البارزة قبل الإسلام.

وأخيرًا داهم الموتُ هذا الداهية، بعد أن ملأ صفحات التاريخ بأعماله المجيدة، وترك آثارًا باقية على الدهر، وبخاصة في الفتوح.

---

(١) نسب قريش (٤١١).

(٢) المحبّر (٤٠٧-٤٠٨).

(٣) المحبّر (٤٢٧).

(٤) المحبر (١٧٧).

فقد مَرِض مَرَض موتِه، سنة ثلاث وأربعين الهجرية، فاشتدّ عليه المرض[1]، وكان من النادر أن يزوره المرض، لاهتمامه الشديد بصحته وعافيته، وعنايته الكبيرة بهما، فهو مثلاً، لا يغتسل من الجنابة، إذا خشي الضرر من البرد بل يصلي متيممًا، كما فعل وهو قائد غزوة ذات السلاسل[2]، ولا يخرج إلى صلاة الجماعة، وهو أمير، إذا كان متوَعِّكًا، بل يؤم الناس وكيله، كما فعل في صلاة الصبح من يوم محاولة اغتياله[3].

ولا نصّ في المصادر المعتمدة عن سبب مرضه الأخير، ويبدو أنه مرض الشيخوخة، إذ كان قد بلغ من الكِبَر عتيًا.

وقد قيل لعمرو في مرضه: «كيف تَجدك؟» قال: «أجدني أذوب ولا أثوب، وأجد نَجْوِي أكثر من رُزْئي[4]، فما بقاء الشيخ على هذا»[5].

ولما حضرت عمرو الوفاة، دمعت عيناه، فقال عبد الله بن عمرو: «يا أبا عبد الله! أجَزَعٌ من الموت، يحملك على هذا؟» فقال: «لا! ولكن مما بعد الموت»[6].

---

(١) الولاة والقضاة (٣٣).

(٢) طبقات ابن سعد (١٣١/٢)، ومغازي الواقدي (٧٦٦/٢-٧٧٤)، وسيرة ابن هشام (٢٩٨/٤)، وعيون الأثر (١٥٧/٢).

(٣) الولاة والقضاة (٣١-٣٢).

(٤) النجو: ما يخرج من البطن من ريح أو غائط. والرزء: ما يناله الإنسان من الطعام.

(٥) عيون الأخبار (٤٩/٣).

(٦) فتوح مصر والمغرب (٢٤٢).

ودخل عبد الله بن العباس، على عمرو وهو مريض، فقال: «كيف أصبحتَ؟» قال: «أصبحتُ وقد أصلحتُ من دنياي قليلاً، وأفسدت من ديني كثيرًا، فلو كان ما أصلحتُ هو ما أفسدتُ لفُزتُ، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبتُ، ولو كان يُنْجيني أن أهرُب لهربتُ، فعِظْني بموعظةٍ، أنتفع بها، يا ابن أخي!» فقال: «هيهات يا أبا عبد الله!» فقال: «اللهم إنّ ابن عباس يُقْنِطُني من رحمتك، فخذ مني حتى ترضى»[1].

وكان عمرو يقول: «عَجَبًا لمن نزل به المــوت، وعقله معـــه، كيف لا يصفه؟!» فلما نزل به، قال له ابنه عبد الله: «يا أبتِ إنّك كنت تقول: عجبًا لمن نزل به الموت، وعقله معه، كيف لا يصفه؟ فصِفْ لنا الموت، وعقلك معك»، فقال: «يا بُني! الموتُ أجلّ من أن يُوصف، ولكني سأصف لك منه شيئًا: أجدني كأنّ على عنقي جبال رَضْوَى، وأجدني كأن في جوفي شوكُ السُّلاَّء، وأجدني كأن نَفَسي يخرج من ثُقْب إبرة»[2].

ولما كان عمرو عند الموت، دعا حَرَسه فقال: «أيُّ صاحبٍ كنتُ لكم؟» قالوا: كنتَ لنا صاحب صِدْق، تُكرمنا، وتعطينا، وتفعل وتفعل، قال: «فإني إنما كنتُ أفعل ذلك لتمنعوني من الموت، وإن الموتَ ها هو ذا، قد نزل بي، فاغنوه عني»، فنظر القوم بعضهم إلى

---

(١) قال الذهبي، وأيده الطحـــاوي: حدثني المزني، سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ثمّ أورد ما ذكرنا في أعلاه. انظر النجوم الزاهرة (١/١١٥-١١٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٦٠).

بعض، فقالوا: والله! ما كنّا نَحْسَبُك تكلَّمُ بالعَوْراءِ يا أبا عبدِ الله، قد علمتَ أنا لا نُغني عنك من الموت شيئًا، فقال: «أما والله! لقد قُلْتُها، وإني لأعلمُ أنكم لا تُغنون عني من الموت شيئًا، ولكن والله لأن أكون لم أتخذْ منكم رجلاً قطُّ يمنعني من الموت، أحبّ إليّ من كذا وكذا»... ثم قال: «اللهمّ لا بَرِيء فاعتذر، ولا عزيز فانتصر، وإلا تدْركني برحمة أكن من الهالكين»[1].

ولما احتضر جمع بنيه، فقال: «يا بَنِيّ! ما تغنون عني من أمر الله شيئًا؟» قالوا: يا أبانا، إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا، فقال: «أسندوني»، فأسندوه، ثم قال: «اللهم إنّك أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أزدجر، اللهم لا قويّ فأنتصر، ولا بريء فأعتـــــذر، ولا مستكبر بل مستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين»[2].

وذكر عبد الله بن عمرو، أن أباه أوصاه، قال: «يا بُنيّ! إذا مِتُّ فاغسلني غَسلة بالماء، ثم جَفِّفني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماء قراح، ثم جَفِّفني في ثوب، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور، ثم جفِّفني في ثوب، ثم إذا ألبستني الثياب، فأزِرَّ عليَّ فإني مخاصم، ثم إذا أنت حملتني على السرير، فامشِ بي مشيًا بين المِشْيَتَيْن، وكن

(١) طبقات ابن سعد (٢٥٩/٤-٢٦٠).

(٢) العقد الفريد (٢٣٣/٢).

خلفَ الجِنازة، فإنّ مُقدّمها للملائكة، وخلفها لبني آدم، فإذا أنت وضعتني في القبر، فَسُنّ عليّ التُراب سَنًّا»، ثم قال: «اللهمّ أمرتنا فركبْنا، ونهيتنا فأضَعْنا، فلا بريء فاعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا الله»، وما زال يقولها حتى مات[1].

وذرفت عيناه، فبكى، فقال له ابنه عبد الله: «يا أبت! ما كنتُ أخشى أن ينزل بك أمر من أمر الله، إلا صبرتَ عليه»، فقال: «يا بُنيّ! إنه نَزل بأبيك خلال ثلاث: أما أولاهنّ: فانقطاع عمله، وأما الثانية: فهَوْل المُطَّلَع، وأما الثالثة: ففراق الأحبة، وهي أيسرهنّ. اللهمّ أمرتَ فتوانيتُ، ونهيتَ فعصيتُ، اللهم فمِن شِيَمِك العفو والتجاوز»[2].

وذكر شهود عيان، شهدوا احتضار عمرو، فذكر أحدُهم[3] ما رأىٰ، فقال: «حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقة الموت، فحوّل وجهه إلى الحائط، يبكي طويلاً، وابنه يقول له: ما يُبْكيك؟ أما بشّرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشّرك بكذا، وهو في ذلك يبكي، ووجهه إلى الحائط، ثم أقبل بوجهه إلينا فقال: «إنّ أفضل مما تَعُدّ عليّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، ولكنني كنتُ على أطباق ثلاث: قد رأيتني ما من الناس من أحد أبغض إليّ من رسول الله ﷺ،

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٦٠).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٣٤٤).

(٣) هو ابن شِماسة المَهْرِيّ، انظر طبقات ابن سعد (٤/٢٥٨).

ولا أحب إليّ من أن أستمكن منه، فأقتله، ولو متُّ على تلك الطبقة، لكنتُ من أهل النار، ثم جعل اللهُ الإسلام في قلبي، فأتيت رسولَ الله ﷺ لأبايعه، فقلتُ: ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله! فبسط يده، ثم إني قبضت يدي، فقال: «مالك يا عمرو؟!» فقلتُ: أردتُ أن أشترط، فقال: «تشترط ماذا؟» فقلتُ: أشترط أن يُغفر لي، فقال: **«أما علمتَ يا عمرو، أن الإسلامَ يَهْدِمُ ما كان قبله، وأن الهجرةَ تَهْدِمُ ما كان قبلها، وأن الحجَّ يهدمُ ما كان قبله؟»** فقد رأيتني، ما من الناس أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، ولو سُئلتُ أن أنْعَتَه، ما أطقتُ، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له، فلو مِتُ على تلك الطبقة، رجوتُ أن أكون من أهل الجنة. ثمّ ولينا أشياء بعدُ، فلستُ أدري ما أنا فيها، أو ما حالي فيها، فإذا أنا متُ، فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسُنّوا عليّ التراب سَنًّا، فإذا فرغتم من قبري، فامكثوا عند قبري قدر ما يُنْحَرُ جَزور، ويُقْسَم لحمها، فإني أستأنس بكم، حتى أعلم ماذا أراجع به رُسلَ ربي»[1].

وقال عمرو: «فوالله إني إن كنتُ لأشدّ الناس حياء من رسول الله ﷺ، ما ملأت عيني منه، ولا راجعته بما أريد، حتى لحق بالله، حياءً منه»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٨-٢٥٩)، والنجوم الزاهرة (١/١١٥)، وانظر صحيح مسلم (١/١٩٦).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٤٣).

وعن عبد الله بن عمرو، أن أباه قال: «اللهم أمرتَ بأمورٍ، ونهيتَ عن أمور، فتركنا كثيراً مما أمرت به، ووقعنا في كثير مما نهيت، اللهم لا إله إلا أنت»، ثم أخذ بإبهامه، فلم يزل يُهلّل حتى تُوفي[1].

وكانت وفاة عمرو ليلة عيد الفطر، سنة ثلاث وأربعين الهجرية[2] (٦٦٤م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وقيل: توفي سنة ثنتين وأربعين الهجرية، وقيل: أربع وأربعين الهجرية، وقيل: إحدى وخمسين الهجرية[3]، والأول أصح[4]، لإجماع المصادر المعتمدة عليه دون استثناء.

ودُفن عمرو بجبل (المُقَطَّم)[5] من ناحية (الفَجِّ)[6]، وكان طريق النّاس يومئذ إلى الحجاز[7]، وقد غَسَّلَه ابنهُ عبد الله بن عمرو، ثم أخرجه حين صلّى الصبح، فوضعه بالمُصلّى في جامع عمرو، ثم جلس.

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٤٤)، وعيون الأخبار (٢/٣١٠)، العقد الفريد (٣/٢٣٣)، والنجوم الزاهرة (١/١١٥)، والولاة والقضاة (٣٣).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٩٠)، والطبري (٥/١٨١)، وفتوح مصر والمغرب (٢٤٢)، وابن الأثير (٣/٤٢٥)، وطبقات ابن سعد (٤/٢٦١)، والولاة والقضاة (٣٤)، والعبر (١/٥١)، والبدء والتاريخ (٦/٣)، والبداية والنهاية (٨/٢٥)، وتهذيب التهذيب (٨/٥٧)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٤/٢٦١)، وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٠).

(٥) المقطّم: وهو الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر والقاهرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/١٢٦-١٢٧).

(٦) الفج: الطريق الواسع بين جبلين، جمعه: فِجَاج. ثم كل طريق فج أيضاً، بفتح أوله وتشديد ثانيه.

(٧) فتوح مصر والمغرب (٢٤٥).

حتى إذا رأى الناس قد انقطعوا من الطُرُق: الرجال والنساء، قام فصلّى عليه، ولم يبقَ أحد شهد العيد إلا صلى عليه، ثم صلّى العيد بالناس، وكان أبوه استخلفه على صلاة مصر وخراجها[1].

وقبل أن يُصَلِّي عبدُ الله بن عمرو على أبيه عمـرو، قـال: «والله! ما أحب أن لي بأبي، أبا رجل من العرب، وما أحبّ أن الله يعلم أن عيني دمعت عليه جزعًا، وأنّ لي حُمْر النَّعَم»، ثم كبَّر[2] للصلاة على الميت.

وليس من شك، أن عمرًا، كان يتمتع بمزايا متميِّزة، تجعله في صفوف البارزين في تاريخ الشعوب، والباقين في أقوالهم وأعمالهم من ذوي المواهب الفذّة والعقول الرّاجحة.

وقد أنصف عمرو نفسه، حين قسّم حياته إلى ثلاثة أدوار: دور الجاهلية، ودور الإسلام، على عهد النبي ﷺ، والشيخين أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، والصّدر الأول من عهد عثمان بن عفان. ودور الإسلام بعد عزله عن مِصْر، في أيام عثمان حتى توفّاه الله.

وأرى أن شعور عمرو بالحزن، والأسى، والندم، وتأنيب الضمير، على ما فرّط في جنب الله، دليل عميق، على إيمانه الراسخ العميق، إذ لو لم يكن مؤمنًا حقًّا، لَمَا أنَّبَ نفسه جهرًا أمام الناس قبل أن يؤنِّبَه غيرُه، لذلك قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام في عمرو: **«أسلم الناسُ، وآمن عمرو بن العاص»**[3]، وقال: **«عمرو بن العاص من**

---

(١) الولاة والقضاة (٣٤).
(٢) فتوح مصر والمغرب (٢٤٥).
(٣) رواه الترمذي، انظر النجوم الزاهرة (٦٢/١)، ورواه أحمد بن حنبل (٣٥٥/٤)، وانظر البداية والنهاية (٢٦/٨).

صالحي قريش»[1]، وقال: «**نِعْمَ أهلُ البيتِ، عبدُ الله، وأبو عبد الله، وأم عبد الله**»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام، فيه وفي أخيه هشام: «**ابنا العاص مؤمنان**»[3]، وفضائله ومناقبه كثيرة جدًّا[4].

وحدّث ابنا العاص: هشام وعمرو، قالا: «ما جلسنا مجلسًا على عهد رسول الله ﷺ، كُنَّا به أشد اغتباطًا من مجلس جلسناه يومًا، جئنا فإذا أناس عند حُجَرِ رسول الله ﷺ، يتراجعون في القرآن، فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورسول الله ﷺ خلف الحُجَر يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله ﷺ، مُغْضَبًا، يُعْرَفُ الغَضبُ في وجهه، حتى وقف عليهم فقال: «**أيْ قومُ! بهذا ضَلَّت الأممُ قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربِهم الكتاب بَعْضَهُ ببعضٍ، إن القرآنَ لم يُنْزل لتضربوا بعضَهُ ببعضٍ، ولكن يُصدِّق بعضُه بعضًا، فما عَرَفْتُم منه فاعملوا به، وما تَشَابه عليكم فآمنوا به**»، ثم التفت إليّ وإلى أخي، فغبطنا أنفسنا، أن لا يكون رآنا معهم»[5].

وليس أدلّ على إيمانه من قوله على منبره: «لقد أصبحتم وأمسيتم، ترغبون فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيها، والله ما أتتْ على رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي، انظرالنجوم الزاهرة (١/٦٢)، وتهذيب التهذيب (٨/٥٦)، والبداية والنهاية (٨/٢٥٩).

(٢) البداية والنهاية (٨/٥٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٣٢٣) و(٤/٣٥٣)، وانظر طبقات ابن سعد (٤/١٩١)، والبداية والنهاية (٨/٥٦)، والنجوم الزاهرة (١/٦٢)، وتهذيب التهذيب (٨/٥٦)، والاستيعاب (٣/١١٩١).

(٤) تهذيب التهذيب (٨/٥٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٤/١٩٢).

من دهره، إلا كان الذي عليه، أكثر مما له»[1]. ويقول: «والله إنْ كنتُ لأشدّ الناس حياءً من رسول الله ﷺ، فما ملأتُ عينيّ من رسول الله ﷺ، ولا راجعته بما أريد، حتى لحق بالله عز وجل، حياءً منه»[2].

فهل يمكن أن تصدر مثل هذه الأقوال، أو يشعر بهذا الشعور، إلا مؤمن قويّ الإيمان؟!

وقد عاش عمرو بعد عمر بن الخطاب عشرين سنة، لأنّ عُمَر تُوفي سنة ثلاث وعشرين الهجرية[3]، وتُوفي عمرو سنة ثلاث وأربعين الهجرية، كما ذكرنا، وكان عُمْرُ عُمَرَ بن الخطاب ثلاثًا وستين سنة على الأصح[4]، وكان عمرو يقول: «أذكر يوم وُلد عُمر بن الخطاب[5]، فكان عُمُرُه لما وُلد عمر بن الخطاب سبع سنين، فعاش تسعين سنة[6]، أي أنّه وُلد سنة سبع وأربعين قبل الهجرة (٥٧٧م)، ومات سنة ثلاث وأربعين الهجرية[7] (٦٦٤م)، فعاش تسعين سنة قمرية[8]، وسبعًا وثمانين سنة شمسية.

وبموته، انتهت حياة قائد، من أعظم قادة الفتح الإسلامي، وإداريّ من ألمع إداريّ البلاد الإسلامية، وداهية من أبرز دُهاة العرب والمسلمين.

---

(١)، (٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٤).

(٣) الطبري (٤/١٩٠).

(٤) ابن الأثير (٣/٥٣).

(٥) تهذيب التهذيب (٨/٥٧).

(٦) الإصابة (٥/٣).

(٧) شذرات الذهب (١/٥٣)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٨٤)، والإصابة (٥/٣) ، والاستيعاب (٣/١١٨٨).

(٨) في تهذيب الأسماء واللغات (٢/٧٠): أن عمره كان سبعين سنة، وفي مصادر أخرى: أنه كان عمره أكثر من تسعين سنة، انظر مثلاً الإصابة (٥/٣).

الفهرس

وكــــــــلاء التـــــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	☐ دار الثقافة	٤١٤١٨٢	ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة
	☐ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤١٣٤٧١	فاكس: ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
الإمارات	☐ مكتبة علوم القرآن	٣٧٤٤٤٥	ص.ب: ٢١٦٣٣ ـ الشارقة فاكس: ٣٦١١١٠ ـ الإمارات
البحرين	☐ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
السعودية	☐ مؤسسة المؤتمن للتجارة	٤٦٤٦٦٨٨	ص.ب: ٦٩٧٨٦ الرياض ١١٥٥٧ المملكة العربية السعودية فاكس: ٤٦٤٢٩١٩
الكويت	☐ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى رمز بريدي: ٣٢٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	☐ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١ ـ ٦٠١٥١١ ٦٠١٩١١	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس: ٦٠١٩٩١
اليمن	☐ مكتبة الجيل الجديد	٧١٣٦٣ ـ ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ ـ ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء
السودان	☐ دار التوزيع	٧٧٥٥٨٥ ـ ٧٧٩٤٦٠	ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصر	☐ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٥٨٨٨٨ ـ ٧٤٨٨٨٨	ص.ب: ٧ ـ القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	☐ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبريس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	☐ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	**Muslim Welfare House,** 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	(٥٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريالات
السودان	(٤٠) ديناراً
عُمان	(٥٠٠) بيسة
قطر	(٥) ريالات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٣) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
اليمن	(٤٠) ريالاً

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا، دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.



مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برقياً : الأمة ـ الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة ـ قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٧٤ لسنة ١٩٩٦
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ ـ ٤٠ ـ ٢٢ ـ ٩٩٩٢١

مـــع الـنبــي ﷺ

١ ـ إسلامـــه

كانت الحرب بين المسلمين والمشركين، قد حجزت بين الناس، وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا، فلما كانت هُدنة الحُدَيْبية، في ذي القعدة، من السنة السادسة الهجرية، وضعت الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناسُ بعضُهم بعضاً، فلم يكن أحد تكلم بالإسلام يعقل شيئًا، إلا دخل في الإسلام، حتى دخل في تلك الهُدنة صناديد المشركين، الذين يقومون بالشرك والحرب: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباه لهم، وإنما كانت الهُدنة، حتى نقضوا العهد، اثنين وعشرين شهراً، دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام، قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب[١].

ولم يحضر عمرو الحُديبية، ولا صُلْحَها، إذ قصد أرض الحبشة في سفارته القرشية الثانية إلى النجاشي[٢]، وقد أسلم عمرو، قبل سرية مُؤتة -بَعْثُ الأمراء إلى الشام- التي كانت في شهر جُمادى الأولى، من السنة الثامنة الهجرية، وبعد هُدنة الحديبية، وغزوة خيبر[٣]، التي

(١) مغازي الواقدي (٢/٦٤٤).

(٢) انظر التفاصيل في مغازي الواقدي (٢/٧٤٢-٧٤٥).

(٣) جوامع السيرة (٢٢٠).

كانت في شهر محرم من السنة السابعة الهجرية، أي أنه أسلم قبل عُمرة القضاء، التي كانت في شهر ذي القعدة، من السنة السابعة الهجرية، وقيل: أسلم بعد عُمرة القضاء[1]، فقد أسلم عمرو، وخالد ابن الوليد، وعثمان بن طلحة[2]، في شهر صفر من السنة الثامنة الهجرية[3] في هُدنة الحُديبية[4].

لقد كان عمرو، يفكّر باعتناق الإسلام، قبل إعلان إسلامه، ولكنه أعلن إسلامه سراً، على يدي النجاشي[5]، ومن الواضح، أنه كان يراود نفسه على الإسلام، قبل إعلانه سراً للنجاشي، فأعلنه للنجاشي، تحقيقًا لتطلعاته الشخصية، وموافقةً للنجاشي لإرضائه، دون أن يناقض نفسه، في هذه الموافقة، فما كان مضطراً لإعلان إسلامه للنجاشي، في حال من الأحوال.

وكان عمرو، قد هَمَّ بالإقبال إلى رسول الله ﷺ، بالمدينة المنورة، في حين انصرافه من أرض الحبشة، بعد عودته في سفارته الثانية، ثم لم يعزم له، حتى سنة ثمان الهجرية[6].

---

(١) الدرر (٢٢١).

(٢) أسد الغابة (٣/٣٧٢)، والإصابة (٤/٢٢٠)، والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٤٥)، وأسد الغابة (٣/٣٧٤)، والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

(٤) أسد الغابة (٣/٣٧٢)، والإصابة (٤/٢٢٠)، والاستيعاب (٣/١٠٣٤)، ونسب قريش (٤٠٩)، وفي تاريخ خليفة بن خياط (١/٤١): أسلم عمرو بن العاص سنة ست الهجرية، وهذا وهم، لإجماع المصادر المعتمدة كافة على خلافه.

(٥) سيرة ابن هشام (٣/٣١٩)، ومغازي الواقدي (٢/٧٤٣)، والطبري (٣/٣١)، وابن الأثير (٢/٢٣١)، وأسد الغابة (٤/١١٦).

(٦) الاستيعاب (٣/١١٨٦).

وقد ذكر عمرو، قصة إسلامه، فقال: «... ثم خرجتُ عامداً إلى رسول الله ﷺ، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قُبيل الفتح -فتح مكة الذي كان في رمضان من السنة الثامنة الهجرية- وهو مُقْبِل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِم[1]، وإن الرجل لنبي، أذهبُ والله فأُسْلِم، فحتى متى؟ قلت: والله ما جئتُ إلا لأُسلم، فقدمنا المدينة، على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، وبايع، ثم دنوتُ فقلتُ: يا رسول الله! إني أبايعك، على أن يُغفر لي ما تَقَدَّمَ من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عمرو! بايعْ، فإن الإسلام، يَجُبُّ[2] ما كان قبله، وإن الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلها»**. قال: فبايعته، ثم انصرفتُ».

وفي رواية أن النبي ﷺ، قال: **«فإن الإسلام يَحُتُّ[3] ما كان قبله، وإن الهجرة تَحُتُّ ما كان قبلها»**، وكان عثمان بن طلحة مع عمرو وخالد بن الوليد[4].

وكان النبي ﷺ، حين رأى عمراً وصاحبيه، قد قال لأصحابه: **«ألقتْ إليكم مكة أفلاذ كبدها»** يعني أنهم وجوه أهل مكة[5].

---

(١) لقد استقام المنسم: هذا مثل معناه: لقد تبيّن الأمر ووضح، ولم يعد فيه لبس ولا شك، وأصل المنسم: خف البعير. وفي بعض الروايات: لقد استقام الميسم: الحديدة التي توسم بها الإبل وغيرها، أي تعلّم.

(٢) يجبّ: يقطع. (٣) يحتّ: يسقط.

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٣١٩-٣٢٠)، ومغازي الواقدي (٢/٧٤٤-٧٤٥)، والطبري (٣/٣١).

(٥) أسد الغابة (٣/٣٧٢)، والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

وأصبح عمرو بعد إسلامه، موضع ثقة النبي ﷺ، لكفاياته المتميّزة، وحسن إسلامه، قال عمرو واصفًا هذه الثقة الغالية: «... فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ، وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه في أمر حَزَبَه[1]، منذ أسلمتُ»[2].

وقد سأل رجل عمرو بن العاص، في يوم من الأيام: «ما أبطأ بك عن الإسلام، وأنت في عقلك؟!» قال: «إنا كنا مع قوم، لهم علينا تقدّم، وكانوا ممّن توازي حلومهم الجبال، فلما بُعث النبي ﷺ، فأنكروا عليه، فلذنا بهم، فلما ذهبوا، وصار الأمر إلينا، نظرنا، وتدبرنا، فإذا حقٌّ بَيِّنٌ، فوقع في قلبي الإسلام، فعَرَفَتْ قريش ذلك مني، من إبطائي عمّا كنتُ أسرع فيه من عونهم عليه، فبعثوا إليّ فتى منهم، فناظرني في ذلك، فقلتُ: أنشدُك اللهَ، ربَّك وربَّ مَن قَبْلك، ومَن بَعْدك! أنحنُ أهدى، أم فارس والروم؟ قال: نحن أهدى! قلتُ: فنحن أوسع عيشًا أم هم؟ قال: هم! قلتُ: فما يَنْفَعُنَا فَضْلُنا عليهم، إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا، وهم أعظم منا فيها أمرًا في كل شيء؟ وقد وقع في نفسي، أن الذي يقوله محمد، عن أن البعث بعد الموت، ليُجْزَى المحسنُ بإحسانه، والمسيء بإساءته حق، ولا خير في التمادي في الباطل»[3].

---

(١) حَزَبَه: نابه واشتد عليه، وفي رواية: في حربه. انظر البداية والنهاية (٢٣٨/٤).

(٢) مغازي الواقدي (٧٤٥/٢).

(٣) الإصابة (٢/٥)، وانظر نسب قريش (٤١٠-٤١١).

قال عمرو: «ثم جعل الإسلام في قلبي، فأتيت رسول الله ﷺ، أُبايعه، فقلتُ: ابْسُطْ يمينَكَ أبايعك يا رسولَ الله! فبسط يده، ثمّ إني قبضتُ يدي، فقال: «**مالك يا عمرو؟!**» فقلتُ: أردتُ أن أشترط! فقال: «**تشترط ماذا؟**» فقلتُ: أشترط أن يُغفر لي! فقال: «**أما علمتَ يا عمرو، أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» فقد رأيتُني، ما من أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، ولو سُئلتُ أن أنْعَتَه ما أطقتُ، لأني لم أكن أطيق، أن أملأ عيني منه، إجلالاً له»[1].

لقد أسلم عمرو بعد تفكير طويل، لذلك قال النبي ﷺ عن إسلامه: «**أسلم الناسُ وآمن عمرو بن العاص**»[2].

وهذا الوصف النبوي الوجيز، لإسلام عمرو، يُجزي من أبلغ المطولات، وأوضحها وأشملها، ولما فتح النبي ﷺ مكة المكرمة، في شهر رمضان، من السنة الثامنة الهجرية، وألقى خطابه من على باب الكعبة المشرَّفة، وعفا عن قريش، وطاف بالكعبة سبعًا، ودخلها، فاجتمع الناس لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، فكانت هذه بيعة الرجال.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٩)، وانظر فتح مصر والمغرب (٢٤٣).

(٢) أسد الغابة (٤/١١٧)، والحديث رواه الإمام أحمد (٤/١١٥)، والترمذي (٢/٣١٦)، انظر مقال الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني المنشور في مجلة التمدن الإسلامي الدمشقية، في العدد الصادر بالمحرم ١٣٨٢هـ-المجلد (٢٩) -ص(٧-٨).

وأما بيعة النساء، فإنه لما فرغ من الرجال بايع النساء، فأتاه نساء من قريش، وكان من بين النساء المبايعات، رَيْطَة بنت مُنَبِّه بن الحجاج[1].

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص، قد أسلم قبل أبيه[2]، فاستكملت عائلة عمرو، وجمع شملها تحت لواء الإسلام.

٢ - في سرية ذات السلاسل[3]

كانت هذه السرية في شهر جُمادى الآخرة، من السنة الثامنة الهجرية[4]، وكان سبب إرسال هذه السرية، أن النبي ﷺ، بلغه أن جمعًا من بَلِيٍّ، وقُضاعة، قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا إلى أطراف رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص، فعقد له لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في سُراة المهاجرين والأنصار، في ثلاثمائة مجاهد، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من العرب، وهي بلاد بَلِيّ وعُذْرَة وبَلْقِين، وذلك أن عمرو بن العاص، كان ذا رحم بهم، إذ كانت أم العاص بن وائل بَلَوِيَّة، فأراد رسول الله ﷺ، أن يتألَّفهم بعمرو. وسار عمرو، وكان يكمُن النهار، ويسير الليل، وكانت معه ثلاثون فرسًا،

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٥٢-٢٥٣)، وفيه: ريطة بنت الحجاج، وهذا وهم، والصواب كما جاء في أعلاه، انظر أسد الغابة (٥/٤٦١)، والإصابة (٨/٨٩)، وانظر طبقات ابن سعد (٤/٢٦١)، وهي أم عبد الله بن عمرو بن العاص، ولعل الخطأ الوارد في ابن الأثير جاء من الناسخ أو الطابع.

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٦٢).

(٣) ذات السلاسل: ماء بأرض جذام، يقال له: السلسل، وانظر معجم البلدان (٥/١٠٦)، وهي وراء وادي القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام سيرًا على الأقدام، انظر طبقات ابن سعد (٢/١٣١).

(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٣١)، وأنساب قريش (١/٣٦٠).

فلما دنا من القوم، بلغه أن لهم جَمْعًا كثيرًا، فنزل قريبًا منهم عِشَاءً وهم شاتون، فجمع أصحابه الحَطَب يريدون أن يَصْطلوا -وهي أرض باردة- فمنعهم عمرو، فشقّ ذلك عليهم، حتى كلّمه في ذلك بعض المهاجرين فغالظه، فقال عمرو: «أُمِرتَ أن تسمع لي وتُطيع!» قال: «فأفعل».

وبعث عمرو إلى رسول الله ﷺ، رافعَ بن مَكِيث الجُهَني[1]، يخبره، أن لهم جمعًا كثيرًا، ويستمدّه بالرجال، فبعث أبا عبيدة بن الجراح[2]، وعقد له لواءً، وبعث معه سَراة المهاجرين -أبي بكر وعمر ابن الخطاب، رضي الله عنهما- والأنصار، وأمره رسول الله ﷺ، أن يلحق عمرو بن العاص، فخرج أبو عبيدة، في مائتين من المجاهدين، وأمره أن يكونا جميعًا ولا يختلفا، فساروا حتى لحقوا بعمرو. وأراد أبو عبيدة، أن يؤمَّ الناسَ، ويتقدم عَمْرًا، فقال له عمرو: «إنما قَدِمتَ عليّ مددًا لي، وليس لك أن تَؤُمَّني، وأنا الأمير، وإنما أرسلك النبي ﷺ إليَّ مددًا»، فقال المهاجرون: «كلاّ، بل أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه!» فقال عمرو: «لا، بل أنتم مَددٌ لنا!»

ولما رأى أبو عُبيدة الاختلاف، وكان حسنَ الخُلُقِ، ليِّنَ الشَكيمة، قال: «لتطمئن يا عمرو! وتعلمنَّ أن آخر ما عَهِدَ إلي رسول الله ﷺ، أن قال: «**إذا قَدِمتَ على صاحبك، فتطاوعا ولا تختلفا**»، وإنك والله إن عَصَيْتني لأُطيعنّك!»، فأطاع أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

(١) أسد الغابة (٢/١٥٩)، والإصابة (٢/١٩٠)، والاستيعاب (٢/١٨٥).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٥٤-٨١).

واصبح مجموع رجال عمرو خمسمائة مجاهد، فسار الليل والنهار، حتى وَطيء بلاد بَلِيّ، ودوّخها[1]، وكلما انتهى إلى موضع، بلغه أنه كان بهذا الموضع جمع، فلما سمعوا به تفرّقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بَلِيّ وعُذْرَة وبَلْقين، ولقي في آخر ذلك جمعًا، ليس بالكثير، فقاتلوا ساعة وتراموا بالنَّبْل، فحمل المسلمون عليهم، فهربوا، وأعجزوا هربًا في البلاد، وتَفَرَّقُوا، ودوخ عمرو ما هناك. أقام أيامًا لا يسمع لهم بجَمْع، ولا بمكان صاروا فيه، فكان يبعث أصحاب الخيل، فيأتون بالشاء والنَّعَم، وكانوا ينحرون ويذبحون.

وكان عمرو بن العاص في طريق عودته إلى المدينة، قد احتلم في ليلة باردة، كأشد ما يكون من البرد، فقال لأصحابه: «ما ترون؟ قد والله احتلمت، وإن اغتسلت مُتُّ»، فدعا بماء فتوضأ، وغسل فرجه، وتيمم، ثمّ قام فصلى بهم. ولما قدم عمرو على النبي ﷺ، سأله عن صلاته، فقال: «والذي بعثك بالحق، لو اغتسلتُ لَمُتُّ، ولم أجد قطُّ بردًا مثله، وقد قال الله: ﴿**ولا تقتلوا أنفسَكُم إنّ اللهَ كان بكم رحيمًا**﴾ (النساء: ٢٩)»، فضحك النبي ﷺ، ولم يقل شيئًا[2].

---

(١) دوّخ البلاد: قهرها واستولى عليها.

(٢) مغازي الواقدي (٢/٧٦٩-٧٧٤)، وطبقات ابن سعد (٢/١٣١)، وسيرة ابن هشام (٤/٢٩٨)، والطبري (٣/٣٢-٣٣)، وابن الأثير (٢/٢٣٢)، والمحبّر (١٢١)، وأنساب الأشراف (١/٣٨٠-٣٨١)، وجوامع السيرة (٢٠)، وتاريخ خليفة بن خياط (١/٤٩)، وعيون الأثر (٢/١٥٧).

ولما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا فيهم، فأرادوا مطاردتهم، فحال عمرو بينهم وبين ما يريدون. ثم أرادوا أن يوقدوا ناراً، يصطلون عليها من البرد -كما ذكرنا- فمنعهم عمرو من ذلك أيضاً، فشق على المسلمين هذا المنع، ولم يحتملوا تلك الشدة التي تصل إلى التهديد، بقذف مَنْ يوقد النار فيها، فشكوه إلى رسول الله ﷺ، فكلّمه في ذلك، فقال له عمرو: «كرهتُ أن آذن لهم، أن يوقدوا ناراً، فيرى عدوُّهم قلّتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مَدَد»، فأعجب به رسول الله ﷺ، أيما إعجاب، وحمد له رأيه[1]، كما أقره النبي ﷺ في اجتهاده بالتيمّم، مع وجود الماء، خوف الضرر[2].

وحين علم النبي ﷺ بما كان بين أبي عُبيدة، وعمرو من اختلاف، قال رسول الله ﷺ: **«يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح»**[3]، تقديراً لموقف أبي عبيدة السليم، وتصرّفه الحكيم.

وقد أثبت عمرو في هذه السرية، أنه قائد مكيث غير متهوّر، متين الضبط، قوي الشخصية، يهتم بأمن رجاله كثيراً، فهو يقاتل بسيفه، كما يقاتل بعقله، بمهارة فائقة، لهذا استطاع تحقيق نتائج باهرة في سريته، فنال إعجاب النبي ﷺ وتقديره.

(١) السيرة الحلبية (٣/٢٧٣)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي (٧٢).

(٢) مغازي الواقدي (٢/٧٧٤).

(٣) مغازي الواقدي (٢/٧٧٣).

٣ - هدم سُوَاع[١] وفي الغزوات

أ - بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمانِ الهجرية، حين فتح مكة، عمرو بن العاص، قائداً لسرية، واجبها هدم سُواع صنم هُذَيْل.

قال عمرو: «فانتهيت إليه، وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلتُ: أمرني رسول الله ﷺ، أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، فقلتُ: لِمَ؟ فقال: تُمْنَع! فقلتُ: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك، هل يَسْمَع، أو يُبصر! فدنوت منه فكسرته، وأمرتُ أصحابي، فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قلتُ للسادن: «كيف رأيت؟» فقال: «أسلمتُ لله»[٢].

ب - وكان عمرو، قد شهد غزو الفتح، مع رسول الله ﷺ، فقاد سريته بعد الفتح -فتح مكة المكرمة، الذي كان في شهر رمضان من السنة الثامنة الهجرية- لهدم سُواع، فنهض بمهمته على أحسن وجه، وأدّى واجبه على ما يرام، ثم عاد إلى مكة المكرمة.

وشهد عمرو مع النبي ﷺ، غزوة حُنين، في شوال من السنة الثامنة الهجرية، فلما هرب المشركون، وتفرقوا في كلِّ وجه، بعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه في الطلب (المطاردة)، فبعث خالد بن الوليد في وَجْه، وبعث عمرو بن العاص في وَجْه، وبعث غيرهما في وجوه أخرى[٣].

---

(١) سُوَاع: صنم كان برهاط من أرض ينبع، كان سدنته بنو لحيان، الأصنام للكلبي (٩).

(٢) طبقات ابن سعد (١٤٦/٢)، ومغازي الواقدي (٨٧٠/٢).

(٣) مغازي الواقدي (٨١٠/٢).

وشهد عمرو مع النبي ﷺ حصار مدينة الطائف، الذي كان في شهر شوال من السنة الثامنة الهجرية أيضاً، بعد غزوة حُنين مباشرة، فلما ثبت بنو ثَقيف، أمر النبي ﷺ بالرحيل عن الطائف، فأثنى عُيَيْنَة بن حِصْن[1] على ثبات ثقيف قائلاً عنهم: «مَجَدَة كِرام»، فقال عمرو: «قاتلك الله، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ وقد جئتَ تنصره؟»[2]

وهكذا نال عمرو شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

٤ - السفير إلى عُمَان[3]

بعث رسول الله ﷺ، عمرو بن العاص، في شهر ذي القعدة سنة ثمان الهجرية، إلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابنيّ الجُلُنْدَي[4]، وهما من الأَزْد، والملك منهما جَيْفَر، يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتاباً،

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

(٢) مغازي الواقدي (٣/٩٣٧).

(٣) عُمَان: كورة باليمن، وهي على ساحل بحر اليمن والهند، تشمل بلداناً كثيرة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢١٥).

(٤) أ. انظر سيرة جيفر في أسد الغابة (١/٧١٣)، والإصابة (١/٢٧٦-٢٧٧).

ب. انظر سيرة عبد في: أسد الغابة (٣/٣٢٤)، والإصابة (٥/١٠٠)، وورد اسمه في ابن الأثير (٢/٢٧٢): عياذ، وكذلك في جوامع السيرة (٢٩)، وما جاء في أعلاه هو الصواب لإجماع المصادر المعتمدة كافة عليه.

ج. انظر البلاذري (١٠٤)، عن سفارة عمرو إليهما.

وختم الكتاب. قال عمرو: «فلما قَدمتُ عُمان، عهدت إلى عَبْدٍ، وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خُلُقًا، فقلتُ: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليك، وإلى أخيك»، فقال: «أخي المقدّم عليّ بالسنّ والمُلْك، وأنا أوصلك إليه، حتى يقرأ كتابك»، فمكثتُ أيامًا ببابه، ثم إنه دعاني، فدخلتُ عليه، فدفعتُ الكتاب إليه مختومًا، ففضّ خاتمه، وقرأه، حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرقّ منه، فقال: «دعني يومي هذا، وارجع إليّ غدًا»، فلما كان الغد، رجعتُ إليه، قال: «إنّي فكرتُ، فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب، إذا ملّكْتُ رجلاً ما في يديّ!» قلتُ: «فإني خارج غداً». فلما أيقن بمخرجي، أصبح فارسل إليّ، فدخلتُ عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدّقا بالنبيﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على مَنْ خالفني، فأخذتُ الصدقة من أغنيائهم، فرددتها على فقرائهم. فلم أزل مقيمًا، حتى بَلَغَنَا وفاةُ رسول الله ﷺ[1]، إذ ولاه النبيﷺ على عُمَان

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٦٢-٢٦٣)، وانظر المحبّر (٧٧)، وابن الأثير (٢/٢٧٢)، وجوامع السيرة (٢٩)، وفي مغازي الواقدي (٣/٩٧٣): لما رجع رسول الله ﷺ من الجِعْرَانة، قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليل بقين من ذي القعدة سنة ثمان الهجرية: فأقام بقية ذي القعدة وذي الحجة، فلما رأى هلال المحرم من سنة تسع الهجرية بعث المصدِّقين، فبعث عمرو بن العاص إلى فَزارة، وهذا الخبر لا تؤيده المصادر المعتمدة كافة، كما أنه ليس من المعقول أن يوفد عمرو إلى عمان في ذي القعدة سنة ثمان، ثم يوفد بعد شهر عاملاً على الصدقة، لأن شهرًا واحدًا لا يكفي للرحيل إلى عمان، والعودة منها، وقد ثبت أنه بقي في عمان عاملاً عليها.

وأعمالها [٢]، فعاد إلى المدينة المنورة، بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى [٣].

وهكذا استطاع عمرو، أن يضمّ عدداً ضخماً من العرب إلى الإسلام، وأن يضم بلاداً شاسعة إلى بلاد المسلمين.

لقد نال عمرو شرف الصحبة، وشرف الجهاد، تحت لواء النبي ﷺ، وشرف قيادة بعض فصائله التعْبويّة، وشرف قيادة قسم من سراياه، وكان أحد سفرائه، وأحد عماله أيضاً، وأحد عماله على الصدقة.

---

(١) جوامع السيرة (٢٤)، وأنساب قريش (١/٥٢٩).

(٢) ابن الأثير (٢/٣٥٢).

في ميدان الجهاد

١ - في حرب الرِدّة

مات النبي ﷺ، وعمرو عاملاً لرسول الله ﷺ ،على عُمَان، فأقبل بعد التحاقه عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى، حتى انتهى إلى البَحْرين، فوجد المنذر بن سَوَى[١] في الموت. وخرج عمرو عن البحرين، إلى بلاد بني عامر، فنزل بقُرَّة بن هُبَيْرة[٢]، وقُرَّة يقدِّم رِجْلاً ويؤخر أخرى إلى الرِّدة، ومعه عسكر من بني عامر، فذبح له، وأكرم مثواه، فلما أراد عمرو الرَّحيل عن ديار قُرَّة، خلا به قُرّة وقال: «يا هذا! إنّ العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها، فتسمع لكم، وتُطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم!» فقال له عمرو: «أكفرتَ يا قُرَّة؟! أتخوفنا بالعرب؟ فوالله لأوطئن عليك الخيل في حِفْش» والحِفْش: بيت تنفرد به النُّفَسَاء[٣].

---

(١) انظر سيرته في أسد الغابة (٤/٤١٧)، والإصابة (٦/١٢٨).

(٢) قُرّة بن هبيرة: أحد الوجوه الذين وفدوا على النبي ﷺ، فأسلم، ثم ارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ، فأسره خالد بن الوليد، وبعث به موثقاً إلى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فاعتذر أنه خاف مسيلمة الكذاب على ولده وماله، وأنه لم يرتد إلا في الظاهر، فعفا عنه أبو بكر، انظر الإصابة (٥/٢٣٨).

(٣) ابن الأثير (٤/٣٦٠).

ومَرَّ عمرو في طريق عودته بمُسَيْلَمَة الكَذَّاب، فأعطاه الأمان، فقال له عمرو: «أعرض لي ما تقول»، فذكر مسيلمة بعض كلامه، فقال عمرو: «والله إنّك لتعلم أنّك من الكاذبين»، فتوعّده مسيلمة[1].

وقدم عمرو على المسلمين بالمدينة، فأخبرهم بما رآه، وسمعه، في طريق عودته، من عُمان إلى المدينة، وكان مما أخبرهم به أن العساكر معسكرة من (دَبَا)[2] إلى المدينة، فتفرّقوا وتحلّقوا حلقًا، وأقبل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، يريد التسليم على عمرو، فمرّ على حلقة فيها عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطَلحَة بن عُبيد الله، والزُّبير بن العَوَّام، وعبد الرحمن بن عَوْف، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم، فلما دنا عمر منهم سكتوا، فقال: «فِيمَ أنتم؟» فلم يجيبوه، فقال لهم: «إنكم تقولون: ما أخوفنا على قريش من العرب!» قالوا: صدقت! قال: «فلا تخافوهم، أنا والله منكم على العرب، أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جُحْرًا، لدخلته العرب في آثاركم، فاتقوا الله فيهم»، ومضى عمرو.

فلما قُدِمَ بقُرَّة بن هُبيرة، على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، أسيرًا، استشهد بعمرو على إسلامه، فأحضر أبو بكر عَمْرًا فسأله، فأخبره بقول قُرَّة، إلى أن وصل إلى ذكر الزكاة، فقال قُرَّة: «مهلاً

(١) الإصابة (٥/٢٣٩).

(٢) دبا: سوق من أسواق العرب بعُمان، وهي مدينة قديمة مشهورة لها ذكر في أيام العرب، وأخبارها وأشعارها، وكانت قديمًا قصبة عُمان، انظر معجم البلدان (٤/٣٠-٣١).

يا عمروا» فقال: «كلا، والله لأخبرنّه بجميعه»، فعفا أبو بكر عنه، وقَبِل إسلامه[١].

ولما عقد أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، أحد عشر لواءً، لقادة حرب أهل الردة، عقد لواءً لعمرو، وأرسله إلى قُضاعة[٢]، ففصلت الأمراء من (ذي القَصَّة)[٣]، ولحق بكلٍّ أمير جنده، وعهد إلى كُلِّ أمير، وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة، يأمرهم بمراجعة الإسلام، ويُحذِّرهم، وسيّر الكتب إليهم مع رسله[٤].

وكانت قُضاعة، قد ارتدّت بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وكان عمرو، قد حاربها في حياة النبي ﷺ، في سرية ذات السلاسل، كما ذكرنا ذلك، فلما أنفذ أبو بكر إلى قُضاعة جيشًا بقيادة عمرو، سار عمرو على رأس جيشه في الطريق، الذي سلكه من قبل، حتى وصل إلى بلاد قُضاعة، فأَعْمَلَ السيفَ في رقابهم، وغلبَهم على أمرهم، فعادوا إلى الإسلام، وعاد عمرو إلى المدينة المنورة حاملاً لواء النصر، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة الهجرية.

---

(١) ابن الأثير (٣٥٣/٢)، والبلاذري (١٣٥).

(٢) الطبري (٢٤٩/٣)، وابن الأثير (٣٤٦/٢).

(٣) ذو القصة: موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد، انظر معجم البلدان (١١٤/٧).

(٤) الطبري (٢٤٩/٣)، وابن الأثير (٣٤٦/٢)، وانظر نص كتاب أبي بكر، الموجّه إلى المرتدين في الطبري (٢٤٩/٣-٢٥٢).

ولا نعرف شيئًا عن تَعْداد جيش عمرو، ولا عن تَعداد مقاتلي قُضاعة، ويبدو أن التفوّق العددي، كان إلى جانب المرتدين، ولكن جيش عمرو كان منظماً، له هدف واضح، وتسيطر عليه عقيدة واحدة، وقيادة واحدة.. والجيش المنظم القليل، الذي يتحلّى بالعقيدة الراسخة، التي تشيع الانسجام الفكري في صفوفه، ينتصر دومًا على الجيش الكبير، غير المنظم، الذي لا يتحلّى بالعقيدة، ويخلو من الانسجام الفكري. لقد كان موقف عمرو في حرب الردة متميزاً.

٢ ـ في أرض الشام[1]

أ ـ ردَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عمرو بن العاص إلى عمله، الذي كان رسول الله ﷺ ولاّه إياه في عُمان، فلما أراد إرسال الجيوش، لفتح أرض الشام، كتب إلى عمرو: «إنّي كنت قد رددتك على العمل، الذي ولاّك رسول الله ﷺ مرة، ووعدك به أخرى، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وليته، وقد أحببتُ أن أُفرغك، لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبّ إليك».

ولما تسلّم عمرو رسالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يومئذ أميرًا على عُمان، كتب إلى أبي بكر جوابًا على كتابه: «إني سهم من

---

(١) أرض الشام: ما نطلق عليه اليوم سورية ولبنان والأردن وفلسطين، غربيها بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط)، وشرقيها البادية من (أيلة) إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حدود الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (٤٣).

سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدّها، وأخشاها، وأفضلها، فارم به شيئًا، إن جاءك من ناحية من النواحي»[1].

وبدأ أبو بكر بحشد العرب، وأمر عمرًا أن يجمع العرب، فأرسل أبو بكر إلى عمرو، بعض مَن اجتمع إليه، وأمَّره على فلسطين، وأوصاه بهذه الوصية: «اتَّق الله في السر والعلانية، فإنه من يتّق الله يجعل له مخرجًا، ويرزُقْه من حيث لا يحتسب، ومن يتّق الله يُكَفِّر عنه سيئاته، ويُعْظم له أجرًا، فإن تقوى الله خير ما تَوَاصى به عباد الله، إنّك في سبيل من سُبل الله، لا يَسَعُك فيه الإذهان[2]، والتفريط، والغفلة، عما فيه قِوام دينكم، وعصمة أمركم فلا تَنِ ولا تَفْتُر»[3]، وكان عقد لواء عمرو، في يوم الخميس، لمستهل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة الهجرية[4].

وأَمَرَ أبو بكر عمرًا، أن يسلك طريق (أيْلَة)[5] عامدًا لفلسطين، وكان العقد لكل أمير من أمراء الشام، في بدء الأمر، ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر، يتبعهم الإمداد، حتى صار مع كُلِّ أمير، سبعة آلف وخمسمائة[6].. وكان جيش عمرو مؤلفًا من أهل مكة، والطائف،

(١) الطبري (٣٨٩/٣)، وابن الأثير (٤٠٣/٢).

(٢) يقال: ذهن عن الشيء، أنساه إياه وألهاه عنه، ومثله أذهنه.

(٣) الطبري (٣٩٠/٣).

(٤) البلاذري (١٤٩).

(٥) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وهي آخر الحجاز، وأول الشام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩١/١).

(٦) البلاذري (١٥٠).

وهَوازن، وبني كِلاب. وقال أبو بكر لعمرو: «لقد وليّتك هذا الجيش، فانصرف إلى أرض فِلَسْطين، وكاتِبْ أبا عُبيدة، وانجدْه إذا أرادك، ولا تقطعْ أمرًا إلا بمشورته»، فأقبل عمرو على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال له: «يا أبا حَفْص! أنت تعلم شِدَّتي على العدو، وصبري على الحرب، فلو كَلَّمتَ الخليفة، أن يجعلني أميرًا على أبي عُبيدة، وقد رأيتَ منزلتي عند رسول الله ﷺ، وإني لأرجو أن يفتح الله على يديّ البلاد، ويهلك الأعداء»، فقال عمر بن الخطاب: «ما كنتُ بالذي أكلِّمه في ذلك، فإنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبو عبيدة أفضل منزلة منك، وأقدم سابقة منك، والنبيﷺ قال فيه: «**أبو عبيدة أمين هذه الأمة**»، فقال عَمرو: «ما ينقص من منزلته إذا كنتُ واليًا عليه؟!» فقال عُمَر: «ويلك يا عَمْرو! إنّك ما تطلب بقولك هذا، إلا الرياسة والشرف، فاتّق الله، ولا تطلب إلا شرفَ الآخرة، ووجه الله تعالى»، فقال عَمْرو: «إن الأمرَ كما ذكرتَ»[1].

وولّى أبو بكر الأُرْدن شُرَحْبِيل بن حَسَنَة[2]، ويزيد بن أبي سفيان[3] دِمشق، وقال للأمراء: «إذا اجتمعتم على قتال، فأميركم أبو عبيدة

(١) فتوح الشام للواقدي (١/٨)، وانظر وصيّة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في نفس المصدر (١/٨-٩).

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١١٣-١١٩).

(٣) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٩٩-١٠٧).

عامر بن عبد الله بن الجرّاح الفِهْري، وإلا فيزيد بن أبي سفيان »، وقال: « إذا كان بكم قتال، فأميركم الذي تكونون في عمله »[1]، أي إذا كان القتال في فلسطين، كان القائد العام عمرو، لأنه قائد فلسطين، وإذا كان القتال في الأردن، كان القائد العام شُرَحبيل.... وهكذا.

أما إذا اجتمع القادة في مكان واحد، فالقائد العام هو أبو عبيدة.

ولما وصل الأمراء أرض الشام، نزل عمرو (العَرَبة)[2]، فبلغ الروم ذلك، فكتبوا إلى هِرَقْل وكان بالقُدس، فقال: أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله، لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه، مع بلاد الروم، أحب إليكم من أن يغلبوكم على الشام، ونصف بلاد الروم »، فتفرقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى حِمْص، فنزلها، وأعدّ الجنود والعساكر، وأراد إشغال كل طائفة من المسلمين، بطائفة من عسكره لكثرة جنده، لتضعف كل فرقة من المسلمين عمّن بإزائه، فأرسل تَذَارِق أخاه لأمه وأبيه في تسعين ألفًا، وبعث القادة الآخرين مع قوّاتهم، ليكون كل قائد منهم، بمواجهة أحد قادة المسلمين، فهابهم المسلمون، وكتبوا إلى عمرو يسألونه الرأي، فأجابهم: « إن الرأي لمثلنا الاجتماع، فإنّ مثلنا إذا اجتمعنا، لا نُغلب

(١) البلاذري (١٥٠).

(٢) العربة: موضع في أرض فلسطين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣٨/٦)، وهي قرب مدينة العقبة في الأردن حاليًا.

من قِلة، فإن تفرّقنا لا يقوم كل فرقة له بمن استقبلها، لكثرة عدوّنا».. وكتب أمراء المسلمين في أرض الشام إلى أبي بكر الصديق يسألونه أيضًا، فأجابهم مثل جواب عمرو، وقال: «إنّ مثلكم لا يُؤتى من قِلة، وإنما يؤتى العشرة آلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصَلِّ كل واحد منكم بأصحابه»[1].

وباجتماع جيوش المسلمين في اليرموك، فَوَّتوا على الروم فرصة ضرب كل جيش من جيوشهم على انفراد، دون أن تستطيع تلك الجيوش التعاون الوثيق بينها، كما ينبغي.

واجتمع المسلمون باليرموك، والروم كذلك، فنزل الروم (الوَاقُوْصَة)[2] وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقًا لهم، وهو لِهْبٌ[3] لا يُدرَك، وإنما أراد قائد الروم يستثبت الروم، ويأنسوا بالمسلمين، وترجع إليهم أفئدتهم، طِيَرَتَها، فقد كانت معنويات الروم منهارة.

وانتقل المسلمون عن معسكرهم الأول، ونزلوا بحذاء الروم، على طريقتهم، وليس للروم طريق إلا على المسلمين، فقال عمرو: «أيها الناس! أبشروا، حُصِرَت الروم، وقلّما جاء محصور بخير»[4].

---

(١) الطبري (٣/٣٩٢-٣٩٣)، وابن الأثير (٢/٤٠٦).

(٢) الوَاقُوْصَة: واد بالشام في أرض حوران على اليرموك، معجم البلدان (٨/٣٨٩).

(٣) لِهْب: بالكسر، الفرجة بين جبلين.

(٤) الطبري (٣/٣٩٣)، وابن الأثير (٢/٤٠٧).

وأقام المسلمون بإزاء الروم، أواخر شهر صفر، وشَهريْ ربيع، لا يقدرون من الروم على شيء، ولا يخلصُون إليهم: الوَاقُوْصَة من ورائهم، والخندق من أمامهم، ولا يخرجون خرجة إلا أديل المسلمون منهم[1]، حتى إذا سلخوا شهر ربيع الأول، من سنة ثلاث عشرة الهجرية، استمدوا أبا بكر، في شهر صفر، فكتب إلى خالد بن الوليد ليلحق بهم، ويأمره بالمسير إليهم، وبالحث، وأن يأخذ نصف الناس، ويستخلف على النصف الآخر المُثنَّى بن حارثة الشيباني[2]، ولا يأخذن مَنْ فيه نجدة، إلا ويترك عند المثنى مثله، وإذا فتح الله عليهم، رجع خالد وأصحابه إلى العراق.

ولما تكامل جمع المسلمين باليرموك، خرج الروم للقتال، في جُمادى الآخرة، فأراد المسلمون الخروج لقتال الروم متساندين، فاقترح خالد لتحقيق تساند المسلمين، أن يتولى الأمراء الإمارة بالتعاقب، وأن يسمحوا له بتولِّي القيادة العامة أولاً، فأمَّروه، وهم يرون أنها لن تطول.

وخرجت الروم، في تعبية لم يَرَ الراؤون مثلها قط، وخرج خالد في تعبية، لم تُعبِّها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كُردوساً[3]

---

(١) يقال: أديل لنا على أعدائنا، أي نُصرنا عليهم، وكانت الدولة لنا.

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة.

(٣) كراديس: مفردها كردوس، وهو كتلة من الجنود تتألف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية: العريف يقود عشرة رجال، وآمر الأعشار يقود مائة رجل، ولكل كردوس قائد له راية، ولعل كلمة كردوس معربة عن كلمة (كورتيس) الرومانية، انظر كتاب الجندية في الدولة العباسية (٢٥٤). وفي اللغة، الكردوس: القطعة العظيمة من الخيل، ويقال: كردس القائد خيله، أي جعلها كتيبة منه.

إلى الأربعين: فجعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس، وعليها عمرو بن العاص، وشُرَحْبيل بن حَسَنة، وجعل الميسرة كراديس، وعليها يزيد بين أبي سفيان، وجعل على كل كردوس رجلاً من الشجعان(١)، فكان لعمرو أثر كبير في انتصار المسلمين على الروم، في هذه المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب أرض الشام، للفاتحين المسلمين.

وشهد عمرو فتح دِمشق بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح، فنزل بجيشه في ناحية باب (تُوما)(٢) أحد أبواب دمشق(٣)، وكان فتح دمشق سنة ثلاث عشرة الهجرية(٤).

ولما فُتحت دمشق، سار أبو عبيدة إلى (فِحْل)(٥)، واستخلف على دمشق، يزيد بن أبي سفيان، وبعث خالداً على المقدّمة، وعلى الناس شُرَحْبيل بن حَسَنة، وكان على الجنبتين، أبو عبيدة، وعمرو بن العاص، فانتصر المسلمون، على الروم أيضاً(٦)، وكان لعمرو أثر كبير في إحراز هذا الانتصار، وقد دارت هذه المعركة، سنة ثلاث عشرة الهجرية(٧).

وسبب تولّي شُرحبيل القيادة العامة، في هذه المعركة، هو أنه كان

---

(١) الطبري (٣/٣٩٣-٣٩٧)، وابن الأثير (٢/٤٠٧-٤١١).

(٢) البلاذري (١٦٥).

(٣) معجم البلدان (٢/١٤).

(٤) الطبري (٣/٤٣٤)، وابن الأثير (٢/٤٢٧)، وفي البلاذري (١٦٥): إنها فتحت سنة أربع عشرة الهجرية.

(٥) فحل: اسم موضع بأرض الشام، معجم البلدان (٦/٣٤٠) وهي بالأردن قرب بيسان.

(٦) ابن الأثير (٢/٤٢٩).

(٧) الطبري (٣/٤٣٤).

قائد منطقة الأُردن، والمعركة جرت في منطقته، فهو يتولى القيادة العامة، تنفيذاً لأوامر أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التي أصدرها لقادة فتح أرض الشام، والتي مرّ ذكرها.

وشهد عمرو مع شُرَحْبِيل فتح (بَيْسَان)[1] و(طَبَرِيَّة)[2]، وصالَحَا أهل الأُردن[3].

ب - وعلم عمرو، أن الروم حشدوا جيوشهم، وعلى رأسها قائد فلسطين للرُّوم، أرطبون (أريطيون) في (أَجْنَادِين)[4]. فسار عمرو، ومعه شُرحبيل بن حَسَنة، واستخلف على الأردن، أبا الأعور السُّلَمي[5].. وكان الأرطبون أدهى الروم، وأبعدها غوراً، قد وضع بـ (الرَّملة)[6] جنداً عظيماً وبـ (إِيلِيَاء)[7] جنداً عظيماً، فلمّا بلغ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه الخبر، قال: «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب -يريد عَمْرًا- فانظروا عمّا تنفرج». وكان معاوية بن أبي سفيان قد شغل أهل (قَيْسَارِيَّة)[8] عن عمرو.. كما جعل عمرو، على قتال إيلياء، عَلْقَمة بن حَكيم

(١) بيسان: مدينة بالأردن بالغور الشامي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣١)، وتقع عبر الأردن في الضفة الغربية منه.

(٢) طبرية: بلدة مطلة على البحيرة المعروفة باسمها في طرف جبل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٣)، وهي بلدة فلسطينية معروفة.

(٣) الطبري (٣/٤٤٣)، وابن الأثير (٢/٤٣١)، ومعجم البلدان (٦/٢٣).

(٤) أجنادين: موضع معروف بنواحي فلسطين، قريب من الرملة، معجم البلدان (١/١٢٦).

(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٦٩-١٧٣).

(٦) الرملة: مدينة بفلسطين بينها بين القدس ثمانية عشر ميلاً، معجم البلدان (٤/٢٨٦).

(٧) إيلياء: اسم مدينة بيت المقدس، انظر معجم البلدان (١/٣٩٢).

(٨) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام بفلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، انظر معجم البلدان (٧/١٩٥).

الفِرَاسي[1] ومَسْرُوق العَكِّي[2]، فشغلوا مَن به عنه، وجعل أيضًا أبا أيوب المالكي[3]، على مَنْ بالرَّمْلة من الرُّوم، فشغلهم عنه، وشاغل هؤلاء القادةُ المسلمون القواتِ الروميةَ عن قوات عمرو الأصلية.

وأقام عمرو على أجْنَادِين، لا يقدر على الأرطبون، ولا تشفيه الرسل، فسار إليه بنفسه، ودخل عليه كأنه رسول، ففطن به الأرطبون، وقال: «لا شك أنّ هذا هو الأمير أو مَنْ يأخذ الأميرُ برأيه»، فأمر رجلاً أن يقعد على طريقه، ليقتله إذا مر به، وفطن عمرو إلى غدر الأرطبون، فقال: «قد سمعتَ مني، وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة، بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه[4]، ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي عرضت، مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك»، فقال الأرطبون: «نعم»، وردّ الرجل، الذي أمره بقتل عمرو، وخرج عمرو من عند الأرطبون، فعلم الرومي، بأن عمرًا خدعه، فقال: «خدعني الرجل! هذا أدهى الخلق».

---

(١) علقمة بن حكيم الفراسي: أدرك النبي ﷺ ، وشهد اليرموك، وجهّزه أبو عبيدة من مرج الصفر مسلحة بين دمشق وفلسطين، استعمله عمر بن الخطاب عليها، واستعمله عمرو بن العاص على قتال إيلياء، انظر الإصابة (١١٢/٥).

(٢) مسروق العَكّي: أدرك النبي ﷺ، وليست له رواية ولا رؤية، شهد اليرموك أميرًا على كردوس من الكراديس، وبعثه أبو عبيدة مسلحة بين دمشق وفلسطين، الإصابة (٨٨/٦).

(٣) أبو أيوب المالكي: أدرك النبي ﷺ ، وشهد فتوح الشام، وأمّره عمرو بن العاص على جيش لقتال الروم، انظر الإصابة (١٣/٧).

(٤) لنكانفه: لنعاونه.

وبلغت خديعةُ عمرو، مسامعَ عمر بن الخطاب، فقال: «لله دَرُّ عمرو!»

وعرف عمرو من استطلاعه الشخصي، هذا الذي ذكرناه، نقاط الضعف، ومواطن القوة، في مواضع الروم، فهاجم جيش الروم في أجنادِين، واشتبك معهم في قتال مرير، كقتال يوم اليرموك، حتى كَثُرت القتلى بين الطرفين، ولكن الأرطبون انهزم، فآوى إلى مدينة (إيلياء)، وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأرطبون، ومَن معه من المنهزمين، فدخل إيلياء، وأزاح المسلمين عنه إلى عمرو في أجنادين، حيث استقر عمرو، ومن معه من المسلمين، في هذه المدينة، للاستعداد لقتال جديد، وانضم عَلْقَمة بن حَكيم، ومسروق العَكِّي، وأبو أيوب المالكي، ومَن معهم، من قوات ثانوية، إلى قوات عمرو الأصلية، في أجنادين[1]، وكان ذلك سنة خمس عشرة الهجرية[2].

ولما دخل الأرطبون مدينة إيلياء (بيت المقدس)، فتح عمرو (غَـزَّة)[3]، و(سَبَسْطِيـة)[4]، و(نَـابُلُـس)[5]، و(اللُّـد)[6]،

---

(١) الطبري (٣/٦٠٥-٦٠٧)، وابن الأثير (٢/٤٩٨)، وانظر البدء والتاريخ (٥/١٨٥).

(٢) الطبري (٣/٦٠٥)، وابن الأثير (٢/٤٩٨).

(٣) غزة: مدينة في أقصى أرض الشام من ناحية مصر، من نواحي فلسطين غربي عسقلان، بينهما فرسخان، انظر معجم البلدان (٦/٢٨٩).

(٤) سبسطية: بلدة بنواحي فلسطين، بينها وبين القدس يومان، وهي من أعمال نابلس، انظر معجم البلدان (٥/٢٩).

(٥) نابلس: مدينة مشهورة بفلسطين، تقع بين جبلين، بينها وبين القدس عشرة فراسخ، انظر معجم البلدان (٨/٢٣٢).

(٦) اللّد: قرية قرب بيت المقدس بفلسطين، انظر معجم البلدان (٧/٣٢٦)، وقد أصبحت اليوم بلدة كبيرة.

و(يَبْنَى)[1]، و(عَمْوَاس)[2]، و(بيت جِبْرين)[3]، و(يَافا)[4]، و(رَفَح)[5]، كما فتح (مُرج عيون)[6].

وقدم أبو عبيدة على عمرو، وهو محاصِر بيت المَقْدس، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب: «إني أعالج عدواً شديداً، وبلاداً قد ادّخرت لك، فرأيك؟» فعلم عُمَرُ أنّ عَمْرًا، لم يقل ذلك إلا بشيء سمعه، فسار عُمر عن المدينة.

وقيل: كان سبب قدوم عمر بن الخطاب، إلى الشام، أن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس، فطلب أهله منهم أن يصالحهم، على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، فسار عمر عن المدينة، واستخلف عليها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وسار عمر بن الخطاب، فقدم (الجَابِيَة)[7]، وكان المدافعون عن بيت المقدس، قد شجوا عَمْرًا وأشجاهم، ولم يَقْدر عليها، ولا على (الرَّملة)[8].

---

(١) يبنى: بليد قرب الرّملة، انظر معجم البلدان (٤٩٦/٨).

(٢) عمواس: هي كورة بفلسطين بالقرب من القدس، على ستة أميال من الرملة على طريق القدس، انظر معجم البلدان (٢٢٥/٦).

(٣) بيت جبرين: بليد بين القدس وغزة، بينه وبين القدس مرحلتان، وبينه وبين غزة أقرب من ذلك، انظر معجم البلدان (٣٢١/٢).

(٤) يافا: مدينة على ساحل بحر الشام، من أعمال فلسطين، بين قيسارية وعكّا، انظر معجم البلدان (٤٩٢/٨).

(٥) رفح: منزل في طريق مصر بعد الداروم، بينه وبين عسقلان يومان، انظر معجم البلدان (٢٦٦/٤).

(٦) مرج عيون: موقع بسواحل الشام، انظر معجم البلدان (١٦/٨).

(٧) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان في شمالي حوران، معجم البلدان (٣٢/٣).

(٨) الرّملة: مدينة عظيمة بفلسطين، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٤).

وقدم قسم من أهل بيت المقدس، إلى عُمَر في الجابية، وصالحوه على الجزية، وفتحوها له، وكان الذي صالحه العَوَامُ، لأن الأرطبون هرب إلى مصر. وأرسل عمر بن الخطاب، إلى أهل بيت المقدس، والرَّملة بالأمان، وجعل عَلْقَمة بن حَكيم، على نصف فلسطين، وأسكنه الرملة، وجعل عَلْقَمة بن مُجَزِّز[1]، على نصفها الآخر، وأسكنه بيت المقدس، فنزل كل واحد في عمله في الجنود التي معه، وضمّ عَمْرًا وشُرحبيل إليه بالجابية، فلما انتهيا إلى الجابية، وافَقَا عمر ابن الخطاب راكبًا، فقبَّلا ركبتيه، وضم عمر كل واحد منهما مُحْتَضِنًا[2]، وكان هذا الفتح سنة خمس عشرة الهجرية[3]، وقيل سنة ست عشرة الهجرية[4]، والأول أصوب.

وكان نصّ معاهدة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مع أهل بيت المقدس، والذي كان عمرو، أحد الشهود على هذه الوثيقة :

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى، عبدُ الله عُمَرُ أميرُ المؤمنين، أهلَ إيلياء، من الأمان.. أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبنهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها، ولا من حَيِّزِها، ولا من

(١) علقمة بن مجزّز: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح النبي ﷺ .
(٢) البلاذري (١٨٨-١٨٩).
(٣) الطبري (٣/٦٠٧).
(٤) ابن الأثير (٢/٥٠١).

صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.. وعلى أهل إيلياء، أن يعطوا الجزية، كما يُعْطِي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الرُّوم واللّصوت[1]، فمن خرج منهم، فإنه آمِن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.. ومَن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرُّوم، ويخلّي بِيَعهم، وصُلُبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيَعِهم وصُلُبِهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض، قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء، من الجزية، ومَن شاء سار مع الروم، ومَن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب، عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف[2]، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة[3] الهجرية.

وحاصر عمرو (قَيْسَارية) بعد فتح بيت المقدس، ولكنّه خرج إلى مصر، فتولّى فتحها، معاوية بن أبي سفيان[4].

---

(١) اللصت مثل اللص: السارق، وجمعه لصوت.

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة النبي ﷺ.

(٣) الطبري (٦٠٩/٣)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٣٤٥-٣٤٦).

(٤) البلاذري (١٩١).

وقد نقض أهل طَبَرية العهد، الذي كان شُرحبيل بن حَسَنة، قد عقده معهم، بعد فتح مدينتهم صلحاً، وكان نقضهم في خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إذ اجتمع مع أهل طبرية قوم من الروم وغيرهم، فأمر أبو عبيدة بغزوهم عمرو بن العاص، فسار إليهم في أربعة آلاف، فاستعاد فتحها، على مثل صُلْح شُرَحبيل، ويقال: بل فتحها شُرَحبيل ثانية[1].

لقد شهد عمرو، أكثر معارك فتح أرض الشام، كما كان فتح أكثر فلسطين، على يديه، وأبلى في فتوح أرض الشام، أحسن البلاء.

٣ - فتح مصر

أ - كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى عمرو، حين فرغ من الشام كلها، أن يسير إلى مصر بجُنده[2].

وفي رواية: أن عمرو بن العاص، كان يحاصر قَيْسارية، فاستخلف عليها ابنه ومضى إلى مصر، من تِلقاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من المسلمين، فغضب عمر بن الخطاب لذلك، وكتب إليه يوبخه ويعنِّفه على افتتانه عليه برأيه، وأمره بالرجوع إلى موضعه، إن وافاه كتابه، دون مصر، فورد الكتاب عليه، وهو بـ (العَرِيْش)[3].

---

(١) البلاذري (١٥٩-١٦٠).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١/١١٤)، والطبري (٤/١٠٤)، وابن الأثير (٢/٥٦٤)، والبداية والنهاية (٧/٩٧).

(٣) العريش: أول مدينة مصرية من ناحية الشام على ساحل بحر الروم وسط الرّمل، انظر معجم البلدان (٦/١٦٢).

وقيل أيضًا: إن عمر بن الخطاب، كتب إلى عمرو، يأمره بالشخوص إلى مصر، فوافاه كتابه، وهو محاصر قَيْسارية[١].

وفي رواية أن عمر بن الخطاب، أقام بإيلياء (بيت المقدس) بعدما صالح أهلها، ودخلها أيامًا، فأمضىٰ عمرو بن العاص إلى مصر، وأمَّره عليها إن فتح الله عليه، فخرج عمرو بن العاص إلى مصر، بعد ما رجع عمر بن الخطاب إلى المدينة المنورة[٢].

وفي رواية: أن عمر بن الخطاب، حين قدم الجابية، خلا به عمرو ابن العاص، فاستأذنه في المسير إلى مصر، وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية، وعرف طرقها، ورأى كثرة ما فيها[٣]، وقال: «يا أمير المؤمنين! ائذن لي أن أسير إلى مصر»، وحرّضه عليها، وقال له: «إنك إن فتحتها، كانت قوة للمسلمين، وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب»، فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين، وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظّم أمرها عند عمر بن الخطاب، ويخبره بحالها، ويهوّن عليه فتحها، حتى ركن لذلك، فعقد له على أربعة آلاف رجل، كلهم من (عكٍّ)، ويقال: بل ثلاثة آلاف وخمسمائة[٤]؛ ثُلُثُهم من غافق[٥]،

---

(١) البلاذري (٢٩٨).

(٢) الطبري (٤/١٠٦-١٠٧).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٧٦).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٨٠-٨١). وعك: هم بنو عكّ بن عدنان بن عبد الله بن الأزد، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨-٣٢٩)، والرجال في جيش عمرو من بني عك، وجاء في معجم البلدان (٦/٢٠٤): "عكّ قبيلة يضاف إليها مخلاف باليمن، ويتصل نسب عك بيعرب بن قحطان".

(٥) فتوح مصر والمغرب (٨١)، وغافق بن الشاهد بن علقمة بن عكّ، انظر جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

وثُلُثَاهم من عَكٌ، وغافِق من عَكٌ أيضًا، فهو غافق بن الشاهد بن عَلْقَمة بن عك[1].

وفي رواية : أن عمر بن الخطاب، قال لعمرو، بعد أن استأذنه، بالمسير إلى مصر: « سِرْ وأنا مستخير الله في سيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا، إن شاء الله، فإن أدركك كتابي، آمرك فيه بالانصراف عن مصر، قبل أن تدخلها، أو شيئًا من أرضها، فانصرف، وإن أنت دخلتها، قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره».. فسار عمرو في جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمرُ اللهَ، فكأنه تخوّف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو، أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمرًا وهو بـ (رَفَح)، فتخوف عمرو، إن هو أخذ الكتاب، وفتحه، أن يجد فيه الانصراف، كما عهد إليه عمَر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه، وسار حتى نزل قرية فيما بين رَفَح والعَريش، فسأل عنها فقيل: إنها من مصر، ودعا عمرو بالكتاب، فقرأه على المسلمين، فقال لمن معه: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟» فوافقوه على أنها من مصر، فقال لهم: فإنّ أمير المؤمنين عهد إليّ، وأمرني، إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر، أن أرجع، ولم يلحقني كتابه، حتى دخلنا مصر، فسيروا، وامضوا على بركة الله»[2].

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٢٨).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٢).

وليس من المعقول، ولا من المنطق في شيء، أن يمضي عمرو لفتح مصر من تلقاء نفسه، وبدون استشارة عمر بن الخطاب، وأخذ موافقته على هذا الفتح، ولا أن يُقْدِم عمرو، على المغامرة بفتح مصر، خلافًا لرغبة عمر بن الخطاب، وموافقته الكاملة الصريحة، وعمرو أعقل وأدهى، وأَبْعد نظرًا، من أن يتحدّى رغبات عمر بن الخطاب، ويخالفه، ويعصي أوامره، فيغضب عمر، ويكتب إليه موبّخًا معنّفًا، وعمر بن الخطاب، أقوى وأصلب من أن يفسح المجال لعامل من عُماله، أن يخالف رغباته، ويتحدّىٰ أوامره، ويخرج عن طاعته، فلابد أن عمرو بن العاص، أقنع عمر بن الخطاب، على فتح مصر، فكانت موافقة عمر بن الخطاب على فتح مصر، موافقة صريحة لا لَبْس فيها ولا غموض.

ولكن متى وأين أخذ عَمرو موافقة عُمَر، على فتح مصر؟

كان مسير عمرو إلى مصر في سنة تسع عشرة الهجرية[1]، وفتحت مصر سنة عشرين[2]، وقيل سنة ست عشرة[3].. وبالجملة، فينبغي أن يكون فتحها، قبل عام الرمادة، لأن عمرو بن العاص، حمل الطعام في بحر القُلْزم من مصر إلى المدينة[4]، في عام الرَّمادة، الذي

---

(١) البلاذري (٢٩٨).

(٢) الطبري (١٠٤/٤)، وتاريخ خليفة بن خياط (١١٤/١)، وابن الأثير (٥٦٤/٢)، والبداية والنهاية (٩٧/٧)، والعبر (٢٣/١).

(٣) الطبري (١٠٤/٤)، وتاريخ ابن الأثير (٥٦٤/٢)، والبداية والنهاية (٩٧/٧).

(٤) ابن الأثير (٥٦٤/٢)، وانظر البداية والنهاية (٩٧/٧).

كان سنة ثماني عشرة الهجرية[١]، أو سنة سبع عشرة[٢]، أي أن الفتح كان سنة ست عشرة الهجرية.

ولم يكن المسلمون، قد استكملوا فتح أرض الشام، في تلك السنة، وقد كان عمرو بأرض الشام سنة ثماني عشرة الهجرية في طاعون (عَمْواس)[٣]، فلما مات أبو عبيدة بن الجراح، استُخلف على الناس معاذ بن جبَل[٤]، فلما مات مُعاذ بالطاعون أيضًا، استُخلف على الناس عمرو بن العاص، فخرج بالناس إلى الجبال، فلم يكره عمر ابن الخطاب ذلك من عمرو[٥].

وقد التقى عمرو بعمر بن الخطاب بـ (الجابية)، فخلا عمرو بعُمَر، وفاتحه بفتح مصر[٦].. وعمر بن الخطاب قدم الجابية أربع مرات؛ الأولى: قُبيل فتح بيت المقدس[٧]، والثانية: بعد فتح بيت المقدس[٨]، والثالثة: في أيام طاعون عَمواس، ولكنه عاد أدراجه إلى المدينة لانتشار الوباء في المنطقة، والرابعة: بعد الطاعون سنة ثماني عشرة الهجرية[٩]، ومعنى

---

(١) الطبري (٤/٩٦)، وابن الأثير (٢/٥٥٥).

(٢) في العبر (١/٢٠): أنه كان سنة سبع عشرة الهجرية.

(٣) عَمْواس: كورة من فلسطين قرب بيت المقدس، على أربعة أميال من مدينة الرّملة على طريق بيت المقدس، انظر معجم البلدان (٦/٢٢٥).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: سفراء النبي ﷺ.

(٥) الطبري (٤/٦٠-٦٢)، وابن الأثير (٢/٥٥٨-٥٥٩)، والبداية والنهاية (٧/١٢٠)، والعبر (١/٢١).

(٦) فتوح مصر والمغرب (٨٠).

(٧) ابن الأثير (٢/٥٠٠).

(٨) ابن الأثير (٢/٥٥٩-٥٦٠).

(٩) ابن الأثير (٢/٥٦١)، وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب قدم الجابية سنة ثماني عشرة.

هذا أن عمرو بن العاص، كان في أرض الشام، حتى نهاية سنة ثماني عشرة الهجرية.

ويبدو أن عمرو بن العاص، سار إلى مصر سنة تسع عشرة الهجرية[1]، ولكنه فتحها سنة عشرين الهجرية[2]، وبذلك يمكن التوفيق، بين ما جاء في المصادر المعتمدة، عن تاريخ فتح مصر، مع استبعاد ما جاء عن فتح مصر في تلك المصادر، قبل سنة تسع عشرة، لأن ذلك يناقض، ما جاء في أحداث التاريخ.

وقد استطاع عمرو، إقناع عمر بن الخطاب بفتح مصر، في لقاء الرجلين، سنة ثماني عشرة الهجرية بالجَابية، وكان عمر بن الخطاب حَرِيًّا بالاقتناع، حتى لا تكون أرض الشام، معرّضة لخطر مهاجمتها من الروم شمالاً من بلاد الروم، وجنوباً من مصر، على طريق سيناء البريّ، وغربًا من بحر الروم، وبخاصة أن أرطبون قائد الروم في فلسطين، لحق بمصر قُبيل استسلام بيت المقدس للمسلمين[3]، ولابد أن يكون مع أرطبون (أريطيون) الذي هرب من بيت المقدس إلى مصر، جيش من جيوش الروم، وأنه كان يحشد جنود الروم، في مصر، لقتال المسلمين في حالة محاولة المسلمين فتح مصر، أو يحاول استعادة فلسطين، إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، فرأى عمرو بن العاص أن على المسلمين، ألاّ

---

(١) البلاذري (٢٩٨).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط (١١٤/١)، والطبري (١٠٤/٤)، وابن الأثير (٥٦٤/٢)، والبداية والنهاية (٩٧/٧).

(٣) الطبري (٦٠٨/٣)، وابن الأثير (٥٠١/٢).

يضيّعوا الوقت سُدى، دون مسوّغ، وأن يوقعوا بالأرطبون، وقوات الروم، قبل أن يستفحل أمرهم، وأيّده عمر بن الخطاب، المعروف بتفكيره الحصيف المتميّز.

ومن المعروف، أن الذين يسيطرون على أرض الشام، وكانت لديهم القوات الكافية للسيطرة على مصر، فإنهم لا يترددون في الاستيلاء على مصر، وأحداث التاريخ القديم والحديث خير شاهد على ذلك.

وقد كان المسلمون حينذاك في أوج قوتهم، وقد فتحوا أرض الشام، فلابد من فتح مصر، بعد استكمالهم فتح أرض الشام.

وتقدم عمرو، على رأس جيشه، البالغ ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل[١]، فلما بلغ المقوقس[٢] قدوم عمرو إلى مصر، توجّه إلى (الفُسْطاط)[٣]، فكان يُجهِّز على عمرو الجيوش، وكان على القصر (يعني قصر الشَّمع الذي بمصر القديمة في القاهرة) رجل من الروم يقال له: (الأُعَيْرج) والياً عليه، وكان تحت يد المقوقس، واسمه جُرَيْج بن مِينا (جورج).. وأقبل عمرو، حتى إذا كان بالعريش، فكان أول موضع قُوتل فيه (الفَرَما)[٤] قاتله الروم قتالاً شديداً، نحواً من شهر،

(١) كتاب الولاة وكتاب القضاة (٨).

(٢) يطلق المؤرخون اسم المقوقس على حاكم مصر في ذلك العصر، والمقصود بالمقوقس هو: قيرس بِطْريق الإسكندرية الثاني، الذي جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر.

(٣) الفسطاط: مدينة بناها عمرو بن العاص بمصر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٨٠)، وهي بمكان حصن بابليون.

(٤) الفرما: مدينة قديمة بين العريش والفسطاط، شرقي تنيس على ساحل البحر على يمين القاصد لمصر، بينها وبين بحر القلزم أربعة أيام، انظر معجم البلدان (٦/٣٦٨)،كان القبط يسمونها: برمون، وكانت مفتاح مصر من الشرق، تشرف على الطريق الصحراوي، وتملك ناصية البحر.

ولكنهم هُزِموا، وكان عبد الله بن سَعْد[١] على ميمنة عمرو، منذ خروجه من قَيْسارية، إلى أن فرغ من حربه، ومضى عمرو لا يُدافع إلا بالأمر الأخف، حتى نزل (القَوَاصر)[٢]، فلم يجد هناك مقاومة تُذْكَر.. وتقدّم عمرو، نحو مصر، لا يُدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى (بُلْبَيْس)[٣]، فقاتله الروم بها نحواً من شهر، ففتحها عمرو، وانهزم الروم، ومضى عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى (أم دُنَيْن)[٤]، فقاتلوا مَنْ بها قتالاً شديداً، ولكن الفتح أبطأ عليه، فكتب إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يستمده، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف مع عمرو، فوصلوا إليه أرْسَالاً، يتبع بعضهم بعضاً، على كلِّ ألفِ رجلٍ منهم رجل مقام الألف، وهم الزبير بن العوام[٥]، والمِقْدَاد بن الأسود[٦]، وعُبادة بن الصَّامت[٧]، ومَسْلَمة بن مُخَلَّد[٨]، في قول، وقيل: خَارِجَة بن حُذَافَة[٩]، الرابع، لا يعدون مَسْلَمة، وقال

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/٥١-٧٤).

(٢) القواصر: بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير، ومكانها الآن القصاصين، وهي بين الفرما والفسطاط، انظر معجم البلدان (٧/١٧٩).

(٣) بلبيس: قاعدة مركز بلبيس، من أعمال محافظة الشرقية.

(٤) أم دنين: تقع على النيل، ويقع الآن فيها جامع أولاد عنان وشارع كامل وحديقة الأزبكية.

(٥) الزبير بن العوام القرشي الأسدي: انظر كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (١٩٧-٢٢٨).

(٦) المقداد بن الأسود: انظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٤٠٩)، والإصابة (٦/١٣٣)، والاستيعاب (٤/١٤٨٠).

(٧) عبادة بن الصامت: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٥٣-٢٦٣).

(٨) مسلمة بن مخلّد: انظر سيرته في: أسد الغابة (٤/٣٦٤)، والإصابة (٦/٩٧)، والاستيعاب (٣/١٣٩٧).

(٩) خارجة بن حذافة: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٣٦-٢٤٠).

عمر بن الخطاب لعمرو: «اعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولن تُغلب اثنا عشر ألفًا من قِلّة»[1].

وفي رواية أخرى، أن الزبير ورد على عمرو، في عشرة آلاف، ويقال في اثني عشر ألفًا، فيهم خارجة بن حُذافة العَدَويّ، وعُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي[2]، وكان الزُبير، قد همّ بالغزو، وأراد إتيان (أنْطَاكِية)[3]، فقال له عمر: «يا أبا عبد الله! هل لك في ولاية مصر؟»، فقال: «لا حاجة لي فيها، ولكني أخرج مجاهدًا، وللمسلمين معاونًا، فإن وجدتُ عَمْرًا قد فتحها، لم أعرض لعمله، وقصدتُ إلى بعض السَّواحل، فرابطتُ به، وإن وجدته في جهاد كنتُ معه»، فسار على ذلك[4].

وحاصر المسلمون حصن بَابلْيُون[5] حصارًا شديدًا، وكان به جماعة من الروم، وأكابر القبط ورؤسائهم، وعليهم المقوقس، فقاتلوهم شهرًا، فلما رأى القوم الجد في المسلمين على فتحه، ورأوا من صبرهم على القتال، ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحّى المقوقس،

(١) فتوح مصر والمغرب (٨٤-٩١)، والنجوم الزاهرة (١/٤-٨)، وانظر البلاذري (٢٩٨-٢٩٩).

(٢) عمير بن وهب الجُمحي: انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح الشام ومصر (٢٤١-٢٤٨).

(٣) أنطاكية: قصبة العواصم في الثغور الشامية، بينها وبين حلب يوم وليلة، تقع على بحر الروم، انظر معجم البلدان (١/٣٥٣-٣٥٩).

(٤) البلاذري (٢٩٩).

(٥) بابليون: اسم موضع الفسطاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٠)، ويسميه الطبري (٤/١٠٥): باب اليُون، وكذلك ابن الأثير (٢/٥٦٤).

وجماعة من أكابر الأقباط وخرجوا من باب القصر القبلي، وتركوا به جماعة يقاتلون المسلمين، فلحقوا بالجزيرة[1]، وأمروا بقطع الجسر، الذي هو على نهر النيل، وزُعم أن الأعَيْرج (جورج قائد حرس الحصن، وقد بقي في الحصن حتى يَقْضِي على ما يُشاع من خروج قيرس) كان قد تخلّف في الحصن، بعد المقوقس، فلما خاف فتح الحصن، ركب هو وأهل القوة والشرف، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس بالجزيرة[2].

وبعث المقوقس إلى عمرو، أن ابعثوا إلينا رسلاً منكم، نعاملهم، ونتداعى نحن وهم، إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.. وبعث عمرو إلى المقوقس، عشرة نفر من المسلمين، أحدهم عُبَادة بن الصامت، فلم تنجح المفاوضات بين الجانبين[3]، ولم يبق غير القتال، لفتح حصن بابليون.

واستمر الحصار سبعة أشهر، فرأى الزبير بن العوام، خللاً في سور الحصن، فنصب سلماً، وأسنده إلى الحصن، وقال: «إني أهب نفسي لله تعالى، فمن شاء أن يتبعني، فليفعل»، فتبعه جماعة حتى أوفى على الحصن، فكبّر وكبّروا، فلما رأى الروم أن المسلمين قد ظفروا بالحصن، انسحبوا، ففتحت الفُسطاط أبوابها للمسلمين[4].

---

(١) هي جزيرة الروضة بالقاهرة.

(٢) فتوح مصر والمغرب (٩٧-٩٨)، والنجوم الزاهرة (١/١٠).

(٣) انظر تفاصيل المفاوضات في: فتوح مصر والمغرب (٩٧-١٠٢)، وانظر (الفاروق عمر) للدكتور هيكل (٢/١١٦).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٩١)، والبلاذري (٢١٥)، وانظر معجم البلدان (٦/٣٧٨).

ولما فتح عمرو حصن بابليون -وكانت معركة فتح هذا الحصن، من المعارك الإسلامية الحاسمة، في الفتح الإسلامي، فتحت أبواب مصر على مصراعيها للفاتحين المسلمين، كما فتحت معركة القَادسية الحاسمة، أبواب العراق، ومعركة اليَرْمُوك الحاسمة، أبواب أرض الشام، ومعركة نَهَاوَنْد الحاسمة (معركة فتح الفتوح)، أبواب بلاد فارس، للفاتحين المسلمين- بدأ عمرو بمعارك استثمار الفوز، التي تَعْقُبُ عادة كل معركة حاسمة، فوجّه عبدَ الله بن حُذافة السَّهْمي إلى (عَيْن شَمْس)[1]، فغلب على أرضها، وصالح أهل قراها، على مثل صلح الفُسطاط.

كما وجّه خارجة بن حُذافة العَدَوي إلى (الفَيُّوم)[2]، و(الأشْمُونين)[3]، و(إخْمِيم)[4]، و(البَشْرُودات)[5]، وقرى (الصَّعِيد)[6]، فصالحها أيضاً، على مثل صلح الفُسطاط.

---

(١) عين شمس: اسم مدينة بمصر، بينها وبين الفسطاط ثلاث فراسخ، وهي ليست على شاطئ النيل، وكانت مدينة كبيرة، انظر معجم البلدان (٦/٢٥٦)، وهي اليوم ضاحية من ضواحي مدينة القاهرة، اسمها: مصر الجديدة، وكانت تسمى قديماً: هليوبوليس.

(٢) الفيّوم: ولاية غربيّة، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام، فيهما مفازة لا ماء فيها ولا مرعى، انظر معجم البلدان (٦/٤١٤)، ولا يزال هذا الاسم يطلق على هذه المنطقة حتى اليوم، ومدينة الفيوم معروفة مشهورة.

(٣) الأشمونين: اسمها أشمون، وأهل مصر يقولون: الأشمونين، وهي مدينة قديمة أزلية عامرة آهلة، وهي كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٢٦١).

(٤) إخميم: بلد بالصعيد، وهو بلد قديم على شاطئ النيل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٣). والبلد باسمه معروف حتى اليوم.

(٥) البشرودات: هكذا وردت في البلاذري (٣٠٤)، وقد وردت في معجم البلدان: البشرود، وهي الصحيح، وهي كورة من كور بطن الريف بمصر من كور الصعيد، انظر معجم البلدان (٢/١٩٠).

(٦) الصعيد: بلاد واسعة بمصر فيها عدة مدن عظام، منها أسوان وهي أوله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك، وينقسم الصعيد إلى ثلاثة أقسام: الصعيد الأعلى: وحدّه أسوان، وآخره قرب إخميم، والثاني: من إخميم إلى البهنسا، والأدنى: من البهنسا إلى قرب الفسطاط،، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٠-٣٦١).

كما وجّه عُمَيَر بن وَهْب الجُمَحي إلى (تِنِّيس)[1]، و(دِمْياط)[2]، و(تُونَة)[3]، و(دَمِيرة)[4]، و(شَطَا)[5]، و(دَقَهلة)[6]، و(بَنَا)[7]، و(بُوصِير)[8]، فصالحها، على مثل صلح الفسطاط أيضاً.

ووجّه عُقبة بن عامر الجُهَني، ويقال مولاه وَرْدَان، مولى عمرو، إلى سائر قرى أسفل مصر، ففعل مثل ذلك.. وبذلك، استجمع عمرو، فتح مصر، فصارت أَرْضُها، أرضَ خَرَاج[9].

ب ـ لما نزل عمرو على عَين شمس، وكان الملك بين القِبْط والنُّوَب، ونزل معه الزبير عليها، قال أهل مصر لمليكهم: ما تُريد إلى قوم، فلُّوا كسرى، وقيصر، وغلبوهم في بلادهم! صَالِح القومَ، واعْتَقِدْ منهم، ولا تَعْرِض لهم -وذلك في اليوم الرابع- فأبى، وناهدوهم

(١) تنيس: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر، ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤١٩).

(٢) دمياط: مدينة قديمة بين تنيس والفسطاط، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٨٥)، وهي معروفة حتى اليوم بهذا الاسم لهذه المدينة.

(٣) تونة: جزيرة قرب تنيس ودمياط من الديار المصرية، معجم البلدان (٢/٤٣٥).

(٤) دميرة: قرية بمصر قرب دمياط، وهما دميرتان إحداهما تقابل الأخرى على شاطيء النيل في طريق دمياط، انظر معجم البلدان (٤/٨٥).

(٥) شطا: بلد بمصر على ثلاثة أميال من دمياط على ضفة البحر الملح (البحر الأبيض المتوسط)، انظر معجم البلدان (٥/٢٦٤).

(٦) دقهلة: بلد بمصر على شعبة من النيل بينها وبين دمياط أربعة فراسخ، وبينها وبين دميرة ستة فراسخ، انظر معجم البلدان (٤/٦٥).

(٧) بنا: بلدة بمصر قديمة، بينها وبين الفسطاط ثمانية عشر ميلاً، انظر في معجم البلدان (٢/٢٨٦).

(٨) بوصير: اسم لأربع قرى بمصر، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٠٦).

(٩) البلاذري (٣٠٤-٣٠٥)، وانظر الفاروق عمر (٢/١٣٩).

وقاتلوهم، وارتقى الزبير سورها، فلما أحسوه، فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم، ونزل الزبير عليهم عَنْوة، حتى خرج على عمرو، من الباب معهم، فاعتقدوا بعد ما أشرفوا على الهَلَكَة، فأجروا ما أخذوا عَنْوة، مجرى ما صالح عليه، فصاروا ذمة، وكان صلحهم:

« بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص، أهلَ مصر، من الأمان، على أنفسهم، وملّتهم، وأموالهم، وكنائسهم، وصُلُبهم، وبرّهم، وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك، ولا ينتقص[١]، ولا يساكنهم النُوَب.. وعلى أهل مصر، أن يُعطوا الجزية، إذا اجتمعوا على هذا الصُّلح، وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف، عليهم ما جنى لُصوتُهم[٢]، فإن أبى أحدٌ منهم أن يجيب، رفع عنهم من الجِزَاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم عن غايته، إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك. ومَن دَخَل في صلحهم من الروم والنُّوَب، فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم ، مَن أبى واختار الذهاب، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثًا، في كل ثلث جِباية ثُلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب، عهد الله وذمته، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النُّوبة، الذين استجابوا، أن يُعينوا بكذا وكذا رأسًا، وكذا وكذا فرسًا، وعلى ألا يُغْزَوا، ولا يُمْنَعوا من تجارة، صادرة، ولا واردة».

---

(١) وفي رواية: ينتقض.

(٢) اللصوت: جمع لصت، وهو اللص.

شهد الزبير، وعبد الله ومحمد ابناه، وكتب وردانُ وحضر[1].

جـ ـ ولما فتح عمرو مصر، أقام بها، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب، يستأمره في الزَّحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه يأمره بذلك. وسار إليها من الفُسطاط، واستخلف على مصر خارجة بن حُذافة العَدَوي، وكان مَن دون الإسكندرية، من الروم والقبط، قد تجمّعوا له، وقالوا: نغزوه بالفسطاط، قبل أن يبلغنا، ويروم الإسكندرية»[2].

وكان مع جيش عمرو، جماعة من رؤساء القبط، فأصلح القبط الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت القبط لجيش المسلمين أعوانًا، على ما أرادوا، من قتال الروم، الذين استعدوا للقاء المسلمين، وقدمت عليهم مراكب كثيرة، من أرض الروم، فيها جَمْعٌ من الروم عظيم، بالعُدّة والسلاح[3].

ولم يلق عمرو من الروم أحداً في طريقه إلى الإسكندرية حتى (تَرْنُوْط)[4]، حيث لقي بها طائفة من الروم، فقاتلوه قتالاً خفيفًا، ثم انهزموا باتجاه الإسكندرية[5].

ويبدو أن عَمْرًا ابتدأ زحفه نحو هدفه الأصلي: الإسكندرية، على الضفة الغربية للنيل، من ناحية الصحراء، لأن فيها مجالاً أوسع لخيله، لا يعوقها فيه

---

(١) الطبري (٤/١٠٨-١٠٩)، والبداية والنهاية (٧/٩٨)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (٣٥٢-٣٥٣).

(٢) البلاذري (٣٠٩).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٤) ترنوط أو طرنوط أو الطرانة، كما يسميها العرب، وقد كان عندها معبر يعبر النيل عليه في الذهاب إلى الإسكندرية، وترنوط الحالية: قرية على النيل بمركز قوم حمادة من أعمال محافظة البحيرة.

(٥) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

ما يعترض أرض الدلتا، من الترع الكثيرة، وقنوات الري المزدحمة.

وعبر عمرو النِّيل إلى الغرب، ومضى بمن معه نحو الإسكندرية، فأرسل شَرِيْك بن سُمَيٍّ [1] في آثار الروم المنهزمين، فلحقت طلائع المسلمين بالروم، عند موضع على ستة عشر ميلاً إلى الشمال من تَرْنُوط. واستطاع الروم أن يثبتوا للمسلمين، فانفذ شريكٌ رسولاً إلى عمرو، يطلب المدد، ولما بلغ الروم مجيء الأمداد، فروا هاربين، وقد سُمِّي هذا الموضع باسم القائد، وهو معروف حتى اليوم باسم: (كَوم شَريك) [2] قرية من قرى كَوْم حمادة، وكَوم حمادة مركز من أعمال محافظة البحيرة، بمصر في الوقت الحاضر.

ثم التقى المسلمون بالروم وحلفائهم بـ(سُنْطِيس) [3]، فاقتتلوا بها قتالاً شديداً، فانهزم الروم.

---

(١) شريك بن سُمَيّ بن عبد يغوث بن حرز الغطيفي: أحد وفد مراد الذين قدموا على رسول الله ﷺ، كان على مقدمة عمرو بن العاص في طريقه لفتح الإسكندرية، فكثرت عليه الروم بموضع كوم شريك، فخافهم على أصحابه، فلجأ إلى هذا الكوم، فاعتصم به، ودافعهم حتى أدركه عمرو بن العاص، وكان قريبًا منهم، فاستنقذهم فسمي: كوم شريك بذلك، انظر معجم البلدان (٣٠٢/٧-٣٠٣).

(٢) كوم شريك: الكَوم بفتح أوله، ويُروى بالضم، وأصله الرمل المشرف، وكوم شريك قرية قرب الإسكندرية، انظر معجم البلدان (٣٠٢/٧).

(٣) ورد اسمها في: فتوح مصر والمغرب (١٠٨): سلطيس، وصوابه: سنطيس، وكذلك وردت: سلطيس في معجم البلدان (١٠٦/٥-١٠٧). وسنطيس قرية كبيرة في نحو منتصف المسافة بين كوم شريك وكريون، على ستة أميال من جنوبي دمنهور، وكانت المعركة عندها معركة شديدة، انهزم فيها الروم، وتدافعوا نحو الشمال إلى الطريق المؤدية إلى الإسكندرية، انظر الهامش رقم (٣) من كتاب: فتوح مصر والمغرب (١٠٨).

والتقوا بـ(الكرْيَون)[1]، فاقتتلوا بضعة عشر يومًا، وكان عبد الله ابن عمرو بن العاص[2]، على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وَرْدان مولى عمرو، فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات، فصبر صبراً جميلاً، وصلّى عمرو يومئذ بجيش المسلمين، صلاة الخوف: بكل طائف ركعة وسجدتين، وتكبّد الطرفان خسائر فادحة، وقَتَل المسلمون من الروم مقتلة عظيمة، وطارد المسلمون الروم، حتى بلغوا الإسكندرية[3].

وكان للروم في الإسكندرية حصون مبنية لا تُرام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين (حُلْوة)[4] إلى (قصر فارس)[5] إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط، يمدونهم بما احتاجوا إليه، من الأطعمة، والعلوفة.

وبقي عمرو بحُلْوة شهرين، ثم تحوّل إلى (المَقْس)[6]، وتُصَوِّر

(١) كِرْيَون: موضع قرب الإسكندرية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٤٨)، وهي مدينة قديمة، زارها ابن حوقل، وذكر عنها في كتابه، أنها كانت في أيامه مدينة عظيمة جميلة على ضفتي ترعة الإسكندرية، وكان التجار يركبون منها القوارب إلى الفسطاط في وقت الصيف إذا علا النيل، وكان في المدينة حاكم تحت إمرته مسلحة من الفرسان والمشاة. وكانت مدينة الكريون آخر حصن من سلسلة الحصون الممتدة للروم بين حصن بابليون والإسكندرية، وكان لها شأن عظيم في تجارة القمح، وخطر كبير في الحرب، إذ كانت تُشرف على الترعة، التي تعتمد عليها الإسكندرية في طعامها وشرابها، لكن حصونها لم تكن في المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون.

(٢) عبد الله بن عمرو بن العاص: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٤/٢٦١)، وأسد الغابة (٣/٢٣٣)، والإصابة (٤/١١١).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٦-١٠٩).

(٤) حُلْوة: موضع بمصر، نزل فيه عمرو بن العاص أيام الفتوح، انظر معجم البلدان (٣/٣٢٧)، وهي موضع كان في الجبهة الشرقية من الإسكندرية.

(٥) قصر فارس: قلعة كانت في شرق الإسكندرية، وقد بناها الفُرس عند حصارهم للإسكندرية قبل الإسلام.

(٦) المقس: موقع بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمى: أم دُنين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط، وحاصرها عمرو بن العاص، وقاتله أهلها قتالاً شديدًا، حتى افتتحها سنة عشرين الهجرية، انظر معجم البلدان (٨/١٢٥)، وانظر فتوح مصر والمغرب (١١١)، حول الحوادث في معركة فتح الإسكندرية.

هذه الرواية، رغبة عمرو في القفول إلى حصن بابليون، ليعلم أهل الدلتا بقربه، ويشعرهم شوكته، بعد أن عز عليه اقتحام أسوار الإسكندرية، فترك حولها جيشاً كافياً لحصار الإسكندرية.

وأخرج الروم، على قوات المسلمين، التي تحاصر الإسكندرية، الخيل من ناحية البحيرة، مستترة بالحصن فاشتبكوا بالمسلمين، وقتلوا منها اثني عشر رجلاً.

وكانت رسل ملك الروم، تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم، وكان ملك الروم يقول: «لئن ظهرت العرب على الإسكندرية، إنّ ذلك انقطاع مُلك الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية». ولما فتح المسلمون أرض الشام، قال الملك: «لئن غلبونا على الإسكندرية، لقد هلكت الروم وانقطع ملكها»، وأمر بجهازه ومصلحته للخروج إلى الإسكندرية، حتى يباشر قتالها بنفسه، إعظاماً لها، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: «ما بقاء الروم بعد الإسكندرية، فلما فرغ من جهازه، مات سنة عشرين الهجرية[1]، وفيها فتحت قَيْسارية الشام[2].

وأقام عمرو محاصراً الإسكندرية أشهراً، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، قال: «ما أبطأوا في فتحها، إلا لـمَا أحدثوا».

(١) كان موت هرقل يوم الأحد ١١ شباط (فبراير) سنة (٦٤١م).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١١-١١٢).

ولـمَّا أَبْطأَ عَلَىٰ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ فَتْحُ مِصْرَ، كَتَبَ إلى عَمْرو بن العَاص:

«أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ عَجِبْتُ لإِبْطَائِكُمْ فِي فَتْحِ مِصْرَ! إِنَّكُمْ تُقَاتِلُونَهُمْ مُنْذُ سَنَتَيْنِ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِـمَا أَحْدَثْتُمْ، وَأَحْبَبْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَحبَّ عَدُوُّكُمْ، وَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَنْصُرُ قَوْمًا إِلاَّ بِصِدْقِ نِيَّاتِهِمْ.. وَقَدْ كُنْتُ وَجَّهْتُ إليكَ أربعةَ نَفَرٍ[1]، وأَعْلَمْتُكَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ مقَامَ أَلْفِ رجلٍ، عَلَىٰ مَا كُنْتُ أَعْرِفُ، إلاَّ أَنْ يكُون غَيَّرَهُم ما غَيَّرَ غَيْرَهُم، فإذا أَتَاكَ كِتَابِي هذا، فَاخْطُبِ النَّاسَ وَحُضَّهُم عَلَىٰ قِتَالِ عَدُوِّهِم، وَرَغِّبْهُمْ في الصَّبْرِ والنِّيَّة، وَقَدِّمْ أولئكَ الأربعةَ في صُدُورِ النَّاسِ، ومُرِ النَّاسَ جَمِيعًا أن يكونَ لَهُمْ صَدْمَةٌ كَصَدْمَةِ رَجُلٍ واحدٍ، وليكنْ ذلكَ عِنْدَ الزَّوالِ يومَ الجُمُعَة، فإنَّها ساعةُ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ وَوَقتِ الإجابةِ، وَلْيَعُجَّ النَّاسُ إلىٰ الله، ويسألُوه النَّصْرَ علىٰ عَدُوِّه»[2].

ولما أتى عمرًا كتابُ عُمَر، جمع الناس، وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر، فقدّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهّروا، ويصلّوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل، ويسألوه النصر[3].

وأرسل المقوقس إلى عمرو، يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة، فأبى عمرو ذلك.

---

(١) ورد ذكرهم سابقًا، وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعُبادة بن الصامت، ومَسلمة بن مخلّد، وقال آخرون: بل خارجة بن حُذافة، لا يعدّون مسلمة مع الأربعة.

(٢) فتوح مصر والمغرب (١١٥-١١٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١١٦).

وأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة، مقبلات بوجوههن إلى داخله، وأقام الرجال بالسلاح مقبلين بوجوههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو: «إنّا قد رأينا ما صنعت، وما بالكثرة غلبنا مَن غلبنا، فقد لقينا هرقل ملككم، فكان من أمره ما كان». فقال المقوقس لأصحابه: «قد صدق هؤلاء القوم! أخرجوا مَلِكَنا من دار مملكته، حتى أدخلوه القسطنطينية، فنحن أولى بالإذعان». فأغلظ له أصحابه القول، وأَبَوْا إلا القتال، فقاتلهم المسلمون قتالاً شديداً، وحصروهم ثلاثة أشهر[1]، ففتحها عمرو بالسيف، واستخلف عمرو على الإسكندرية، عبد الله بن حُذَافة السهمي، في رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفُسطاط[2].

وكان فتح الإسكندرية سنة إحدى وعشرين الهجرية[3]، وفي رواية أنها فُتحت سنة عشرين الهجرية[4]، وفي رواية أنها فُتحت سنة خمس وعشرين الهجرية[5].

وأُرجِّح الرواية الأولى؛ أي أن الإسكندرية فُتحت سنة إحدى وعشرين الهجرية[6]، لأن عمرو بن العاص، فتح مصر عدا الإسكندرية

---

(١) في كتاب: فتوح مصر والمغرب (١١٧): حاصر المسلمون تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك.

(٢) البلاذري (٣٠٩-٣١٠)، وابن الأثير (٢/٥٦٧)، وفتوح مصر والمغرب (١٠٦-١١٠).

(٣) البلاذري (٣٠٩).

(٤) الطبري (٤/١٠٤)، وابن الأثير (٢/٥٦٤)، والنجوم الزاهرة (١/٢٠).

(٥) الطبري (٤/١٠٤)، وابن الأثير (٢/٥٦٤)، والنجوم الزاهرة (١/٢٠).

(٦) تاريخ خليفة بن خياط (١/١٢٣).

سنة عشرين الهجرية، فقد فتح في هذه السنة بعض مصر[١]، لا كلها، ومن المعروف أن الإسكندرية، كانت آخر أصقاع مصر فتحاً، فلم يستطع عمرو إكمال فتح مصر كلها سنة عشرين الهجرية، فأتمّ فتحها سنة إحدى وعشرين الهجرية .

أما الذين ذكروا أن الإسكندرية فُتحت سنة خمس وعشرين الهجرية، فقد خلطوا بين فتحها الأول سنة إحدى وعشرين الهجرية، واستعادة فتحها، بعد انتقاضها سنة خمس وعشرين الهجرية، فقد انتقض أهل الإسكندرية، سنة خمس وعشرين الهجرية، فاستعاد عمرو فتحها، في هذه السنة[٢] أيضاً، كما سيرد ذلك وشيكاً. وفي رواية أن عُبادة بن الصامت، هو الذي فتح الإسكندرية[٣] .

د ـ ولما فتح عمرو الإسكندرية بالسيف، غنم ما فيها، واستبقى أهلها، ولم يقتل، ولم يَسْبِ، وجعلهم ذمّة كأهل الفُسطاط، وكتب إلى عمر بن الخطاب بالفتح، مع معاوية بن حُدَيج الكِنْدِي ثم السَّكُوني[٤]، وبعث إليه معه بالخُمس. ويقال: إن المقوقس صالَحَ عمراً، على ثلاثة عشر ألف دينار، على أن يخرج من الإسكندرية مَن أراد الخروج، ويقيم بها من أحب المقام، وعلى أن يُفرض على كل

---

(١) العبر (٢٣/١).

(٢) الطبري (٢٥٠/٤)، وتاريخ خليفة بن خياط (١٣٣/١)، وابن الأثير (٨١/٣)، والعبر (٢٨/١)، والبداية والنهاية (١٥١/٧).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١١٦-١١٧).

(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٧٥/١-٨٩).

حالم من القبط دينارين، فكتب عمرو لهم بذلك كتابًا.

واستخلف عمرو على الإسكندرية عبد الله بن حُذافة في رابطة من المسلمين، وانصرف إلى الفُسطاط[1].

وكان الروم قد عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم المقام ببلادهم، بعد خروج الإسكندرية من ملكهم، فكاتبوا مَن كان فيها من الروم، ودعوهم إلى نقض الصلح، فأجابوهم إلى ذلك[2].

كما أن الروم، الذين بقوا في الإسكندرية، كتبوا إلى قُسْطَنطين بن هِرَقْل، الذي كان ملك الروم في القسطنطينية يومئذ، يخبرونه بقلّة من عندهم من المسلمين، وبما هم فيه من الذلة، وأداء الجزية، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له: مَنُويل في ثلاثمائة مركبٍ مشحونةٍ بالمقاتلة، فدخل الإسكندرية، وقتل مَن فيها من روابط المسلمين، إلا من تَمَلَّصَ منهم، فنجا من القتل، وكان ذلك سنة خمس وعشرين الهجرية.

وبلغ عمرو بن العاص الخبر، فسار إليهم في خمسة عشر ألفًا، فوجد مقاتلي الروم قد خرجوا، يعيثون فيما يلي الإسكندرية، من قُرى مصر، فلقيهم المسلمون، ورشقوهم بالنشّاب ساعة، والمسلمون مترسون، ثم هاجموهم بعنف، فالتحمت بينهم الحرب، واقتتلوا قتالاً

---

(١) البلاذري (٣١٠).

(٢) ابن الأثير (٣/٨١).

شديداً، وانهزم الروم، ولم يتوقفوا في هزيمتهم إلا في الإسكندرية، فتحصّنوا بها، ونصبوا العرّادات[1]، فقاتلهم عمرو على الإسكندرية أشد قتال، ونصب المجانيق فَحَطَّمَتْ جُدُرَها، وألحّ عمرو بالحرب، حتى دخل الإسكندرية بالحرب عَنْوة، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وهرب بعض سكانها من الروم، إلى بلاد الروم، وقُتل مَنُويل قائد الروم، وهدم عمرو والمسلمون جدارَ الإسكندرية، وكان عمرو نذر، لئن فتحها، ليفعلن ذلك[2].

ولم يوافق المقوقس أهل الإسكندرية في انتقاضهم، فأقرّه عمرو بعد استعادة فتح الإسكندرية، على أمره الأول[3].

وكان الروم، لما خرجوا من الإسكندرية، إلى القرى التي حولها، قد أخذوا أموال أهل تلك القرى، مَن وافقهم، ومَن خالفهم، فلما ظفر بهم المسلمون، جاء أهل القرى، الذين خالفوا الذين انتقضوا من الروم، وبقوا على ولائهم للمسلمين، فقالوا لعمرو بن العاص: «إنّ الروم أخذوا دوابنا وأموالنا، ولم نخالف نحن عليكم، وكنا على الطاعة»، فردَّ عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة[4].

---

(١) العرادات: جمع عرادة: وهي آلة حربية لرمي الحجارة.

(٢) البلاذري (٣١٠-٣١١)، وفتوح مصر والمغرب (٢٢٦-٢٢٧)، ومعجم البلدان (٣١٤/٨)، وابن الأثير (٨١/٣)، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (١٣٢/١).

(٣) البلاذري (٣١١).

(٤) ابن الأثير (٨١/٣).

لقد كان أهل مصر الأصليين مع المسلمين على الروم، وكما قال المقوقس لعمرو: «... وأن لا تنقض بالقِبْط، فإن النقض لم يأت من قِبَلِهم»[1].. «وقد تم صلح القبط فيما بينك وبينهم، ولم يأت من قِبَلهم نقض، وأنا متمّم لك على نفسي، والقبط متمّمون لك الصلح، الذي صالحتهم عليه، وعاهدتهم، وأما الروم، فأنا منهم بريء...»[2]، وصارت القبط للمسلمين أعوانًا[3] على الروم.

هـ - ومهما قيل في تَعداد جيش المسلمين الذي فتح مصر، فبدأ بأربعة آلاف رجل، أو ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل، وانتهى بعد وصول المدد من المدينة المنورة، بقيادة الزبير بن العوام، بثمانية آلاف، فيما إذا صحّ أن تعداد المدد أربعة آلاف رجل، وخمسة عشر ألفًا، فيما إذا صحّ أن تعداد المدد اثنا عشر ألفًا، فإنّ تعداد هذا الجيش الفاتح كان قليلاً للغاية، بالنسبة لتحقق هدف العمليات، وهو فتح مصر، وبالنسبة لتعداد المقاتلين من الروم، ومن أهل مصر، الذين نهضوا بمهمة الدفاع عن مصر، فقد ورد بكتاب ملك الروم الموجه إلى المقوقس: «إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا، وبمصر مَن بها من كثرة عدد القبط ما لا يُحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال، وأحبوا أداء

(١) البلاذري (٣٠٢)، وفتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٠٥).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٦).

الجزية إلى العرب، واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية، ومَن معك، أكثر من مائة ألف، معهم العُدَّة، والقُوة، والعرب وحالهم وضعفهم، على ما قد رأيت...»[1].

والادّعاء بأن فتح مصر كان نزهة ترفيهية للفاتحين، بحجة أن الأقباط كانوا للمسلمين عونًا على الروم بصورة مطلقة، وأن الروم لم يقاتلوا كما ينبغي، ادّعاء متهافت، يدلّ على الجهل المطبق، أو على التحيّز والتعصب المقيت، فقد قاوم الروم وأهل البلاد المصريون، الفاتحين مقاومة شديدة، وأعانتهم طبيعة بعض المواقع، كحصن بابليون وأسوار الإسكندرية، على تلك المقاومة، وقد خندقوا خندقًا حول حصن بابليون، وجعلوا له أبوابًا، وبثّوا أفنيتها حَسَك الحديد[2]، وثبتوا في كثير من مواضعهم الدفاعية، ثباتًا عنيدًا، امتدّ أيامًا، وأسابيع، وأشهرًا، وأكمل المسلمون فتح مصر خلال سنتين، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على ثبات المدافعين، واستقتال الفاتحين.

لقد كان المدافعون عن مصر، متفوقين على المسلمين الفاتحين، تفوقًا ساحقًا، بالعَدد والعُدَد، وكانوا يقاتلون دفاعًا عن بلادهم وعقيدتهم، وكانوا أكثر خبرة بفنون القتال التعبوية، من أولئك

---

(١) فتوح مصر والمغرب (١٠٤).

(٢) حسك الحديد: هو من أدوات الحرب: كالأسلاك الشائكة التي تعيق تقدم الفرسان والمشاة. انظر فتوح مصر والمغرب (٨٨).

القادمين من الصحراء، وكانت قواعدهم قريبة منهم، وقواعد المسلمين بعيدة عنهم، وكانوا أغنى من المسلمين في المواد التموينية وأوفر حظًا، وكانت مزية اختيار المواضع القتالية بأيديهم، وهذه المواضع المناسبة، تساعدهم على الدفاع عنها، وتعرقل مهمة الهجوم عليها، وكانت طرق المواصلات البرية والبحرية، مفتوحة للمدافعين عن مصر، فكانت تردهم الإمدادات بالمراكب، من قواعد الروم المتقدمة والرئيسة، في بلاد الروم الأصلية، ولم تكن المواصلات البحرية مفتوحة، ولا متيسّرة للمسلمين، بأي شكل من الأشكال.

كل هذه المزايا القتالية كانت إلى جانب المدافعين عن مصر، ولكنّ المسلمين الفاتحين، أحرزوا النصر المؤزّر، بالإقدام والتضحية والفداء، وبالشهداء.

لقد كان المسلمون متفوقين على المدافعين عن مصر بالمعنويات العالية، فكان أحد هؤلاء المدافعين، يتمنى أن يموت صاحبه قبله، وكان أحد الفاتحين يتمنى أن يموت قبل صاحبه، فانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة؛ بالمعنويات العالية، التي كانت نتيجة من نتائج أثر الإسلام في النفوس والعقول معًا.

عاد رسل المقوقس من عند عمرو، إلى المقوقس قبل فتح حصن بابليون، وكان المقوقس يومئذ في جزيرة الروضة، فقال المقوقس لرسله: «كيف رأيتموهم؟» فقالوا: «رأينا قومًا، الموت أحبّ إلى أحدهم من

الحياة، والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على رُكبهم، وأجيرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيّد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون بصلاتهم»[1].

ووصف المقوقس المسلمين الفاتحين فقال: «والله إنهم على قلّتهم وضعفهم --يريد المسلمين- أقوى وأشد منا، على كثرتنا وقوتنا .. إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا، وذلك أنهم قوم الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقْتِل، يتمنى ألا يرجع إلى أهله ولا بلده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا، فيمن قَتَلوا منا، ويقولون إنهم إن قُتلوا، دخلوا الجنة، وليس لهم لذة في الدنيا ولا رغبة، إلا قدرُ بُلْغَة العيش من الطعام واللباس، ونحن قوم نكره الموت، ونحبّ الحياة ولذتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء؟ وكيف صَبْرُنا معهم؟»[2]

ومهما يُقال في تأييد هذين القولين: قول رسل المقوقس، وقول المقوقس، في وصف المسلمين الفاتحين، تصديقًا، أو تشكيكًا، فإن أفعال المسلمين الفاتحين، تصدّق هذين القولين، والأفعال أبلغ وأصدق من الأقوال وأجدى، فالتطبيق العملي للفتح هو الحكم الفصل في تصديق هذين

---

(١) انظر فتوح مصر والمغرب (٩٧).

(٢) فتوح مصر والمغرب (١٠٥).

القولين، وغيرهما من أمثالهما من الأقوال، والسيف أصدق إِنْبَاءً من الكُتب.

لقد انتصر العرب بالإسلام، ولن ينتصروا بغيره في يوم من الأيام، والتاريخ خير دليل على ذلك، وكانت انتصارات المسلمين الفاتحين انتصارات عقيدة بدون شك، جعلت من المجتمع الإسلامي الأول، مجتمعًا يضمّ قادة متميزين، وجنوداً متميزين، ولم يكونوا كذلك، قبل أن يعتنقوا هذه العقيدة، ويتمسكوا بتعاليمها، كما هو معروف، فلما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر، عزا سبب الإبطاء إلى تغيير الفاتحين ما بأنفسهم[1].

وقد كان القِبْط لعمرو أعوانًا[2]، أو كان أكثرهم على أقل تقدير، وخرج معه لفتح الإسكندرية، جماعة من رؤساء القِبط، فأصلحوا للفاتحين الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم[3]، ولم ينقض القِبط، ولا المقوقس الصلح، الذي عقدوه بينهم وبين الفاتحين، كما نقض الروم[4].

وليس موقف القبط بالنسبة للفاتحين، إلا استنكاراً لظلم الروم، وإعجابًا بعدل المسلمين، فأخلصوا للذين عدلوا، وكرهوا الذين ظلموا، ومصادر القِبط القديمة خير شاهد على ذلك.

---

(١) فتوح مصر والقاهرة (١١٦).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٨٦).

(٣) فتوح مصر والمغرب (١٠٧).

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٠٥-١٠٦).

٤ ـ في ليبيـا [١]

أ ـ أراد عمرو القضاء على سلطان الروم في المنطقة الواقعة غربيّ الديار المصرية، ليتخلص من تعرّض الروم بمصر من الغرب، إذ كان الروم يحتلون تلك المناطق، ويشكّلون تهديداً بريًّا خطراً لمصر، فسار يخترق الصحراء، حتى بلغ (بَرْقة)[٢].

وكانت بَرْقة، قبل الفتح الإسلامي، تابعة للإسكندرية، تحت حكم الرُّوم، وكانت أخبار فتح المسلمين لمصر، قد انتشرت في كلِّ البلاد المجاورة، وقد اشتملت تلك الأخبار على ما أظهره المسلمون من شجاعة وإقدام، وعلى ما طبقوه من عدل ومساواة، واحترام معابد المغلوبين، وأملاكهم، وأعراضهم، فكانت هذه الأخبار مطمئنة لنفوس أهل بَرْقة.

وقد انتهى عمرو من فتح الإسكندرية الأول في ذي القعدة من سنة إحدى وعشرين الهجرية، الموافق النصف الأخير من شهر أيلول (سبتمبر)

---

(١) ليبيـا: اسم قديم ينحدر من الجغرافية القديمة. وتسمى: لوبيا أيضًا، وهي البلاد الواقعـة بين حدود مصر شرقًا، وتونس غربًا، والبحر الأبيض المتوسط شمالاً، وحدود السودان جنوبًا. وتتكوّن ليبيا من ثلاثة أقسام: طرابلس، وبرقة، وفَزّان، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١-٤).

(٢) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى كثيرة بين الإسكندرية وإفريقية، انظر معجـم البلدان (١٣٣/٢)، وكانت برقة قبل الفتح الإسلامي تسمى: أنطابلس، وهي كلمة رومية معناها بالعربية: خمس مدن هي: طوشيرا، وسميت فيما بعد: أوسينولي، واسمها اليوم: طوكرة. وسيرين أو قورين، واسمها اليوم: قرنة أو شحات. ومدينة برنيق، وقد بنيت على أنقاضها مدينة: بني غازي. ومدينة أبولونيا، واسمها اليوم: سوسة. والمدينة الخامسة هي مدينة: بارش، وسميت فيما بعد: ابطوليمانيس، واسمها اليوم: المرج، وهي مدن قديمة أسسها اليونان في أزمان مختلفة، وكانت موجودة قبل الفتح الإسلامي، وكان لها شأن في التاريخ القديم، وما زالت معروفة إلى اليوم، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (١١-١٢).

من سنة (٦٤٢م))، فسار بجيشه إلى برقة لفتحها، ففتحها عمرو، وصالح أهلها على الجزية[١]، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين الهجرية[٢].. وفي رواية أخرى: أن فتحها كان سنة إحدى وعشرين الهجرية[٣].

وفَتْحُها سنة اثنتين وعشرين الهجرية أصح، لأنه من المعقول أن يبقى عمرو في الإسكندرية بعد فتحها، حتى تستقر أمورها، ويسيطر عليها سيطرة كاملة، فإذا كانت المسافة بين الإسكندرية وبَرْقة لا تُقطع إلا بعشرين يومًا على الأقل، سيرًا على الأقدام، وعلى الدواب، اتضح لنا أن المدة الباقية من شهري ذي القعدة، وذي الحجة، لا تكفي لاستقرار الأمور في الإسكندرية، وإكمال التنقل بين الإسكندرية وبَرْقة، لذلك يبدو أن القول بفتحها سنة اثنتين وعشرين الهجرية، أقرب إلى الصحة، ويتفق مع المنطق السليم.

وقد صالَحَ عمرو أهل بَرْقة على ثلاثة عشر ألف دينار[٤]، ولم يكن يدخل بَرْقَة يومئذ جابي خراج، إنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها[٥]، فكان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والي مصر، من غير أن يأتيهم حاثّ أو مُستحثّ، فكانوا أَخْصَبَ قوم بالمغرب، ولم يدخلها فتنة، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: «لولا مالي بالحجاز،

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٢٩-٢٣٠)، والبلاذري (٣١٤)، والطبري (٤/١٤٤)، وابن الأثير (٣/٢٥) ومعجم البلدان (١٣٤).

(٢) ابن الأثير (٣/٢٥).

(٣) الطبري (٤/١٤٤)، والنجوم الزاهرة (١/٧٥).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٢٩)، والطبري (٤/١٤٤)، والبلاذري (٣١٤).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٣٠).

لنزلت بَرْقة، فما أعلم منزلاً أسلم، ولا أعزل منها»[1].

وقد هدم المسلمون أسوار مدن بَرقة، خوفًا من ارتداد أهلها، ومحاربة المسلمين من وراء الأسوار[2]، أو خوفًا من عودة الروم إليها، والدفاع عنها، بالاستفادة من تلك الأسوار.

ومن بَرقة بعث عمرو إلى (زَوِيلَة)[3] عُقبة بن نافع الفِهْري، فافتتح زَوِيلَة صُلْحًا[4]، وكان فتحها سنة اثنتين وعشرين أيضًا.

ومن الواضح أن سبب بعث هذه القوة بقيادة عقبة، هو لترصين فتح بَرْقة من الجنوب والجنوب الغربي، بالسيطرة على سكان زويلة، وحرمانهم من التعرّض بالمسلمين الفاتحين في بَرْقة، ولتأمين عمق سَوْقِيّ للفتح في برقة، ولتأمين طريق مواصلات جيش عمرو، المتجه من برقة نحو الغرب.

وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بعد فتح زَوِيلَة، يُعْلِمُه أنه قد ولّىٰ عقبةَ بن نافعٍ الفِهْري المغربَ، فبلغ زَوِيلَة، وأن مَن

---

(١) البلاذري (٣١٤-٣١٥).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٢).

(٣) زويلة: بَلَدَان أحدهما زويلة السودان مقابل إجدابية في البر، بين بلاد السودان وإفريقية، انظر معجم البلدان (٤/٤١٨)، وهي المقصودة هنا. وهي مدينة من مدن فزّان القديمة، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة مرزق بنحو (١٥٠)كم، وتبعد عن مدينة طرابلس إلى الجنوب الشرقي بنحو (٧٧٠) كم. ويعبر عنها بعض المؤرخين والجغرافيين بزويلة السودان احترازًا من زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بقرب تونس، وكانت زويلة زمن الفتح الإسلامي عاصمة فزّان.

(٤) الطبري (٤/١٤٤)، وابن الأثير (٣/٢٠).

بين زويلة وبرقة سَلَّمَ كلُّهم حسنةَ طاعتهم، قد أدّى مسلمهم الصدقة، وأقرّ معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة، ومَن بينه وبينها، ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء، فيردُّوها في الفقراء، ويأخذوا الجزية من الذمّة، فتحمل إليه بمصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العُشر ونصف العشر[1]، ومن أهل الصُّلْح صُلْحَهم.

وقد فرض عمرو على أهل زويلة ثلاثمائة رأسٍ من العبيد، وفرضَ عليهم ما يطيقونه، وهو ما يتفق مع وضع البلد حينذاك، إذ كانوا يتاجرون بالرقيق، يستوردونه من الجنوب، ويصدّرونه إلى الشمال.

وهكذا فتحت برقة وشطر فَزان.

ب ـ وتوجّه عمرو إلى طرابلس على طريق الساحل، وهو آمن من أن يُؤتىٰ من الجنوب، لوجود عقبة في الجنوب، كما أمن عقبة أن يؤتى من الشمال لوجود عمرو في الشمال.

ومرّ عمرو في طريقه إلى طرابلس بمدينة (سُرْت)[2]، ففتحها، ولم يجد عناء في فتحها، ولم يذكر أحد أنها فتحت عَنْوة أو صلحًا،

---

(١) الزرع الذي يسقى بالآلات وفي سقيه مشقة، زكاته نصف العشر، والزرع الذي يُسقى بالمطر أو بما لا مشقة فيه فزكاته العُشر.

(٢) سرت: مدينة قديمة تقع على الخليج المسمى باسمها الآن، تبعد عن البحر إلى الجنوب بنحو (٤)كم، وتقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٥٥٤)كم، وكانت محاطة بسور من التراب، وهي غير سرت المعروفة الآن، وكانت تسامت مدينة الزعفران المعروفة اليوم، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٦).

مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى منها المسلمون بالاستسلام، وسار المسلمون في طريقهم إلى طرابلس، ومروا في طريقهم إليها بـ (لَبْدَة)[1]، فوجدوها خرابًا مهدّمة، وحواليها قليل من السكان، وهم خليط من البربر والروم، ولم ينقل أحد من المؤرخين، أنهم وجدوا فيها أي مقاومة[2].

ونزل عمرو (أطْرَابُلُس)[3] سنة اثنتين وعشرين الهجرية، فنزل القبة التي على الشَرَف، من شرقيها[4]، وحاصر المدينة فامتنع أهلها عن التسليم، وتحصّنوا داخل السور، وكان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوّروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق والغرب والجنوب، ولم تكن المدينة مسوّرة من الشمال بينها وبين البحر.

وبقي المسلمون على حصارها، نحو شهر، لا يقدرون منها على شيء.

---

(١) لبدة: مدينة قديمة أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، تقع شرقي طرابلس بنحو تسعين كيلو مترًا، وقد بنيت مدينة الخمس في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، على جزء كبير منها وبأنقاضها، انظر تفاصيل تاريخها في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٧-٣١)، وانظر ما جاء عن لبدة في معجم البلدان (٣١٨/٧).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٣٢).

(٣) أطرابلس: مدينة في آخر أرض برقة، وأول أرض إفريقية، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٥/١)، و(٣٤/٦)، واسمها اليوم:طرابلس، وهي مدينة كبيرة على البحر الأبيض المتوسط، عاصمة ليبيا حاليًا، وهي مدينة قديمة فينيقية على أرجح الأقوال، أو قرطاجنية، وكانت تسمى تريبولي، ومعناها المدن الثلاث، لأن كلمة (تري) معناها ثلاثة، و(بولي) معناها مدينة، انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٣٣-٣٦).

(٤) هي الهضبة التي فيها قبة الشيخ عبد الله الشعاب رحمه الله، وهي معروفة اليوم وعليها جامع عبد الله الشعاب.

وفي ذات صباح، ذهب سبعة من المسلمين للاستطلاع، أو للصيد، وكانوا مسلّحين بسيوفهم، ورماحهم، فساروا حتى وصلوا إلى جهة السوّر الغربية الشمالية، فوجدوا السور غير متّصل بالبحر، لأنها لم تكن مسوّرة من الناحية الشمالية كما ذكرنا، وقد يكون البحر في حالة جزر، مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا أنه من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم، من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو، وبقية المسلمين، تكبير إخوانهم داخل السور، فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون، وعلت سيوفهم رقاب الروم، فذهلوا وذعروا، فلم يسعهم إلا الفرار، وتدافعوا إلى الطرقات المؤدية إلى السفن الراسية على شاطىء المدينة، ناجين بأنفسهم إلى عرض البحر، ففتح المسلمون المدينة، وغنموا كل ما فيها، وكانت غنائم كثيرة، باعها عمرو، وفرّق ثمنها على المسلمين[1].

ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا المسلمين، حين اقتحموا عليهم المدينة، ويبدو أن سبب ذلك هو أثر مباغتة المسلمين للروم في دخول المدينة من مكان لا يتوقعونه، وفي زمان لا يتوقعونه، فاستسلموا للمسلمين بدون مقاومة تُذْكَر.

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣٠-٢٣١)، وابن الأثير (٣/٢٥-٢٦)، وانظر البلاذري (٣١٦)، وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٧-٢٨).

وقد هدم المسلمون سور المدينة، لأنهم خافوا من انتقاض الروم[1].

وكان أهل حصن (سَبْرة)[2] قد تحصّنوا، لما نزل عمرو على طرابلس، فلما امتنعوا عليه بطرابلس، أمنوا واطمأنوا، فلما فُتحت طرابلس، جنّد عمرو عسكرًا كثيفًا، وسيّره إلى سَبْرة، فصبّحوها، وقد فتح أهلها الباب، وأخرجوا مواشيهم لتسرح، لأنهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس، فوقع المسلمون عليهم، ودخلوا البلد مكابرة، وغنموا ما فيه، وعادوا إلى عمرو[3].

وكان الجند، الذي جرّده عمرو لفتح سَبرة، من الخيل الكثيفة، التي بعثها من ليلته[4]، لذلك استفاد فرسان عمرو من سرعة الحركة، فباغتوا أهل سبرة بالزمان، إذ وصلوا إلى المدينة قبل أن يتسامعوا بفتح طرابلس، فانهارت معنوياتهم، ولم يكن أمامهم مسلك يسلكونه غير الاستسلام.

لقد سبقت خيلُ عمروٍ الأخبارَ، فباغت فرسانه المدافعين عن سبرة، وشلّوا تفكيرهم، وأجبروهم على الاستسلام، وكان الفرسان فاتحو سبرة بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام[5].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠).

(٢) سبـرة: اسم مدينة فُتحت بعد طرابلس، انظر معجم البلدان (٥/٢٨-٢٩)، وهي مدينة: صَبْراتة، تقع غربي مدينة طرابلس بنحو (٦٣)كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أنشأها الفينيقيون حوالي سنة (٩٠٠ أو ٨٠٠) قبل الميلاد، وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمرانًا ومدنية، وأرْوَج تجارة، انظر تاريخها في: تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠-٤٢).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٣١)، وابن الأثير (٣/٢٦).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٣١).

(٥) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٢/٣٦-٩١).

ولا شك في أن أخبار حصار المسلمين لطرابلس وصلت إلى أهل سبرة (صبراتة)، وليس من المعقول أن يبقى المسلمون محاصرين لطرابلس نحو شهر، ولا تصل أخبارهم إليها، خصوصاً لما بينها وبين طرابلس من الروابط الوثيقة، ويظهر أنه لما طال حصار المسلمين لطرابلس، ظنّ أهل صبراتة أنهم لا يقدرون على فتحها، فاستكانوا لهذا الظن وأمنوا، وإذا عجز المسلمون عن فتح طرابلس -في ظنهم- فهم أعجز عن فتح صبراتة، لأن سورها أقوى من سور طرابلس، وسكانها أكثر من سكان طرابلس، فلم يهتموا لأمر المسلمين كثيراً، ولم يعملوا على وقاية مدينتهم من إغارة المسلمين[1]، فاستهانوا بالمسلمين، فكلّفتهم هذه الاستهانة غالياً.

جـ - ولما انتهى المسلمون من فتح صبراتة، ساروا إلى (شَروس)[2]، وهي أكبر عواصم البربر القديمة في جبل (نَفُوْسة)[3]، التي كانت موجودة زمن الفتح الإسلامي، وما زالت خرائبها إلى اليوم،

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٠).

(٢) شروس، ويقال: سَرُوس -بمهملتين- وهي مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية، وهي كبيرة آهلة، بينها وبين طرابلس خمسة أيام، بينهما حصن لبدة، انظر معجم البلدان (٥/٧٨).

(٣) جبل نفوسة: هي سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق، وهو جزء من سلسلة جبال أطلس التي تبتدىء من بحر الظلمات وتمتد بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا، وتنتهي إلى جبال قُماطة غربي مدينة الخمس الليبية بقليل، ومازال إلى اليوم موطن البربر، وفيه عيون جارية، انظر التفاصيل في تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٣-٤٤).

وكانت إحدى عواصم الجبل، وكانت تحتوي على نحو ثلاثمائة قرية، والعاصمة الأخرى هي (جادو)[1].

وما زال المسلمون يحاولون فتح شَروس حتى فتحوها، ولكننا لا ندري هل فتحت صلحًا أو عَنْوة؟ إذ لم يتطرّق إلى ذلك أحد المؤرخين وغيرهم[2].

وقبل أن يغادر عمرو مدينة سَرُوس (شَروس)، كتب إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنورة، يستأذنه في فتح إفريقية (تونس): «إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها، فعل». فلم يوافقه عمر، وردّ عليه بكتاب هذا نصه: «لا، إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرِّقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيتُ».

وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئًا، فكانوا يغدرون به كثيراً، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر[3].

---

(١) جادو: مدينة كبيرة في جبل نفوسة، انظر معجم البلدان (٣/٣٤).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٤).

(٣) فتوح مصر والمغرب (٢٣٢)، والبلاذري (٣١٦).

د ـ ولما أنجز عمرو فتح طرابُلس[١] -بضم الباء واللام، أو بضم الباء وسكون اللام- وجّـــه بُسْـرَ بن أبي أرطأة العَامــري القُرشي[٢] إلى (وَدَّان)[٣]. وذلك في سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فصالح أهلها على ثلاثمائة رأس وستين رأسًا من العبيد[٤].

وبعد أن غادرهم بُسر، ارتدوا وبقوا على ردّتهم، إلى أن فتحهم عُقبة بن نافع سنة ست وأربعين الهجرية[٥].

لقد فتح عمرو ليبيا: من بَرقة إلى صبراته، ومن بلاد الجنوب شَروس وزويلة، وودّان، واستغرقت أعمال الفتح من سنة اثنتين وعشرين الهجرة إلى سنة ثلاث وعشرين الهجرية، وقد فتحت هذه

---

(١) في فتوح مصر والمغرب (٢٦٢): أن عمرو بن العاص بعث بسر بن أبي أرطأة، وهو محاصـــر لأهل طرابلس الغرب، وأرجّح ما ذكرته في أعلاه، لأن عمرو بن العاص لا يمكن أن يفرّط بقائد مثل بسر، وبجزء من قواته في إرسالها إلى هدف آخر ثانوي، بينما هو بحاجة إلى قيادة بسر وكل جندي من جيشه لفتح هدفه السوقي: طرابلس، أما بعد أن تمّ لعمرو فتح طرابلس، فمن المعقول أن يستغني عن بسر والقوات التي جعلها بقيادته، لفتح ودّان.

(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (٣/١٣-٢٥).

(٣) ودان: كلمـة ودان مأخوذة من الود، وهو المحبـة، وهي مدينة قديمة من مدن البربر الجنوبيـــة، ويتبعها: زلة، وهون، وسوكنة، وما جاورها، ويطلق على الكل: بلاد ودّان. وكانت ودّان زمن الفتح الإسلامي هي العاصمة، وكان عليها سور، وقد تهدم ولم يبق منه الآن إلا آثاره، وقد امتد عمرانها حديثًا خارج السور. وتقع ودان وهون وسوكنة على خط طوله نحو ستين كيلو مترًا، يبتديء من الشرق بودّان، وينتهي من الغرب إلى سوكنة، مع انحراف سوكنة إلى الجنوب قليلاً. وتقع زلة في الجنوب الشرقي من ودّان بنحو (١٦٠)كم، وتقع ودّان في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو (٧٦٩)كم، وإلى جنوبي سرت بنحو (٢٨٠)كم، انظر معجم البلدان (٨/٤٠٥)، وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٧).

(٤) فتوح مصر والمغرب (٢٦٢)، واليعقوبي (٢/١٣٤)، وتهذيب ابن عساكر (٣/٢٢١)، ومعجم البلدان (٨/٤٠٦)، وتاريخ الفتح العربي في ليبيا (٦٩-٧٠).

(٥) معجم البلدان (٨/٤٠٦).

البلاد عَنوة (بالحرب) إلا بَرقة وزويلة، فإنهما فُتحتا صلحًا[1].

وكان هدف فتح بَرْقة حماية البلاد المصرية، من تعرّض الروم براً من الغرب، وكان هدف فتح زويلة هو حماية بَرقة من تعرّض الروم وحلفائهم الليبيين براً من الجنوب والجنوب الغربي، وكان هدف فتح منطقة طرابلس هو حماية بَرْقة، من تعرّض الروم براً من الغرب، وحماية منطقة زويلة من تعرّض الروم براً من الغرب، وحماية منطقة زويلة من تعرّض الروم براً من الشمال والشمال الغربي، وكان الهدف من فتح منطقة ودّان، هو حماية منطقة طرابلس من الجنوب والجنوب الشرقي من تعرّض الروم وحلفائهم الليبيين بالمسلمين.

ولكن لم يكن فتح عمرو لليبيا فتحًا مستدامًا، بل انتقض كثير من أجزائها، فاستعاد المسلمون فتحها من جديد[2]، ولكن الفضل الأول في فتحها كان لعمرو بن العاص.

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٨).

(٢) انظر التفاصيل في: تاريخ الفتح العربي في ليبيا:

(أ) الفتح الثاني (٤٩هـ-٥٤هـ).

(ب) الفتح الثالث (٥٥هـ-٥٩هـ).

(ج) الفتح الرابع (٦٠هـ-٦١هـ).

(د) الفتح الخامس (٦٢هـ-٦٦هـ).

(هـ) الفتح السادس (٦٧هـ-٧٧هـ).

(و) الفتح السابع (٧٨هـ).

(ز) الفتح الثامن (٧٩هـ-٨٥هـ).

(ح) الفتح التاسع (٩٦هـ-٩٧هـ).

(ط) الفتح العاشر (٩٨هـ-٩٩هـ).

وكان عمرو قبل مغادرته مصر، قد اتفق مع المقوقس أن يخبره بكل ما يحدث بعده في مصر من حوادث مصيرية.. وبعد أن انتهى عمرو من فتح شَروس، وقبل أن يرتحل عنها، أتاه كتاب من المقوقس، يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، وكان عمرو قد عاهد المقوقس ألا يكتمه أمرًا يحدث، فانصرف عمرو راجعًا مبادرًا لما أتاه[١]، وعاد إلى مصر قبل مقتل عمر بن الخطاب في (٢٧ ذي الحجة) من سنة ثلاث وعشرين الهجرية، وترك عقبة بن نافع في زويلة، ليُتِمَّ فتحها سنة ثلاث وعشرين الهجرية، ووصل برقة قبل مقتل عمر بن الخطاب[٢].

٥ ـ في النُّوبَة[٣]

لما فتح المسلمون مصر، غزوا النُّوبَة، فقفل المسلمون بالجراحات، وذهاب الحَدَق من جودة الرّمي، فسمّوا رماة الحَدَق[٤]، فقد أراد عمرو أن يؤمِّن مصر من الجنوب، فبعث عُقبة بن نافع الفهري، فدخلت خيول المسلمين النوبة، كما تدخل صوائف[٥] الروم، فلقي المسلمون

---

(١) فتوح مصر والمغرب (٢٣٢).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٤٤).

(٣) النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، أول بلادهم بعد أسوان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢٣).

(٤) الطبري (٤/١١١)، ابن الأثير (٢/٥٦٧).

(٥) صوائف: جمع صائفة، وهي القوة الغازية صيفًا.

بالنوبة قتالاً شديداً. لقد لاقاهم النوبيون، فرشقوهم بالنّبل، حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة، وحَدَق مفقوءة، فسمي النوبيون (رماة الحَدَق)، ولم يصالحهم عمرو، ودأب على مهاجمتهم بين حين وآخر، حتى عُزل عن مصر، ووَلي عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، فصالحهم، فكانت بينهم وبين المسلمين هُدنة، يعطيهم المسلمون شيئًا من القمح والعدس، ويعطيهم النوبيون رقيقًا[١].

وقد ذكر شيخ من حِمْيَر قال: «شهدت النوبة مرتين، في ولاية عمر بن الخطاب، فلم أر قومًا أحَدّ في حرب منهم! لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحبّ أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منّا، فقال: في مكان كذا! فلا يخطئه!! كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يُرى من نبلهم في الأرض شيء[٢]! فخرجوا إلينا ذات يوم فصافُّونا، ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم؛ رمونا حتى ذهبت الأعين، فعُدّت مائة وخمسين عينًا مفقوءة، فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل، وإنّ نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو، ولم يزل يكالبهم حتى نُزع، ووَلي عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، فصالحهم[٣].

---

(١) البلاذري (٢٣١-٢٣٢).

(٢) يريد أن نبلهم تصيب في أهدافها، فتقع في الأجسام لا في الأرض.

(٣) البلاذري (٢٣١-٢٣٢).

وقد فُتحت مصر سنة عشرين الهجرية، كما ذكرنا، والتعرّض بالنوبة الأول بقيادة عقبة بن نافع، لابد أن يكون بعد فتح الصعيد، فمن الواضح أن التعرض الإسلامي بالنوبة كان سنة إحدى وعشرين الهجرية[1]، لأن عقبة بعد ذلك أصبح ميدان جهاده في ليبيا، كما ذكرنا، ولم يعد إلى مصر قائداً، بل تولّى إفريقية، واقتصر نشاطه العسكري على تلك المناطق والأصقاع. وهكذا كان عمرو أول من فكّر في فتح النوبة، ومهد لفتحها.

٦ - في إفريقية [2]

تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، وذلك سنة أربع وعشرين الهجرية[3].

وكان عمرو قد استأذن عمر بن الخطاب في غزو إفريقية، فلم يوافق عمر على فتحها كما ذكرنا، وكان عمرو قد بعث بعثًا قبل سنة خمس

(١) انظر كتابنا: عقبة بن نافع الفهري (١١٣)-ط٤.

(٢) إفريقية: اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة، قبالة جزيرة صقلية، ينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، والجزيرتان في شمالها، فصقلية منحرفة إلى الشرق، والأندلس منحرفة عنها إلى جهة الغرب، وحدّ إفريقية من طرابلس إلى بجاية، وقيل: إلى مليانة. وقال آخر: حدّها من برقة شرقًا إلى طنجة غربًا، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان، انظر التفاصيل في: معجم البلدان (١/٣٠٠)، وآثار البلاد وأخبار العباد (١٤٨).

(٣) الطبري (٤/٢٤٢)، وابن الأثير (٣/٧٩)، والعبر (١/٢٧).

وعشرين الهجرية إلى المغرب، فأصابوا غنائم، فكتب إلى عثمان يستأذنه في الغزو إلى إفريقية، فأذن له[1]، أي أن هذا البعث إلى إفريقية كان سنة أربع وعشرين الهجرية كما يبدو، أي بعد تولية عثمان الخلافة.

وفي سنة خمس وعشرين الهجرية، سيّر عمرو بن العاص إلى أطراف إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح غازيًا بأمر عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح من جند مصر، ولما سار عبد الله إليها، أمدَّه عمرو بالجنود، فغنم هو وجنده، وعاد عبد الله إلى مصر، فكتب إلى عثمان، يستأذنه في غزو إفريقية، فأذن له في ذلك[2].

وكانت قوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخيل[3]، أي أنها كانت مؤلفة من الفرسان سريعي الحركة، فكانت غزوته هذه غزوة استطلاعية، مهّدت له السبيل لفتح إفريقية[4]، بعد أن تولّى مصر، خلفًا لعمرو بن العاص، سنة خمس وعشرين الهجرية[5]، أو في سنة

(١) الطبري (٤/٢٥٠).

(٢) ابن الأثير (٣/٨٦)، وانظر الطبري (٤/٢٥٠)، وفي رياض النفوس (١/٤٤): أنه دخلها سنة ٢٧ هـ.

(٣) الطبري (٤/٢٥٠).

(٤) انظر التفاصيل في كتابنا: قادة فتح المغرب العربي (١/٥٤-٦٢)، وانظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب (١/٥١-٧٤).

(٥) النجوم الزاهرة (١/٧٩)، وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٧٠)، وفتوح مصر والمغرب (٢٣٥)، وأسد الغابة (٣/١٧٣)، والإصابة (٤/٧٧).

ست وعشرين الهجرية[1]، أو في سنة سبع وعشرين الهجرية[2].

وقد ذكرنا من قبل، أن عمرو بن العاص، كان أول من فكّر بفتح إفريقية من القادة المسلمين، وذلك لحماية ليبيا من تعرّض الروم وحلفائهم، بالمسلمين الذين فتحوا طرابلس والبلاد التي حولها من جهة إفريقية، لأن الروم حينذاك كانوا هناك، وكان المسلمون يخشون تعرضاً برياً من الغرب باتجاه طرابلس، لاستعادة ليبيا من المسلمين، ولكن عمر بن الخطاب، كان يحرص غاية الحرص على أرواح المسلمين، ولا يحب أن يعرّض المسلمين للأخطار.

إلا أن الأحداث بعد مقتل عمر بن الخطاب، وتولي عثمان بن عفان الخلافة، فرضت نفسها على المسلمين، نظراً لمحاولة الروم وحلفائهم استرداد ليبيا بمهاجمتها براً وبحراً، فسمح عثمان للمسلمين بفتح إفريقية.

---

(١) ابن خلدون (٢/١٢٨ ملحق)، وتاريخ أبي الفدا (١/١٦٧).

(٢) الطبري (٤/٢٥٢)، وابن الأثير (٣/٨٨)، والعبر (١/٢٩).

تقديم

بقلم: عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإيمان، وجعلنا بفضله من جند الإسلام، الحاملين لرسالته، المبلغين لدعوته، الوارثين لنبوته، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

والصلاة والسلام على من اجتمعت فيه كمالات الأنبياء، وانتهت إليه خصائص وأصول الرسالات، فكَمُل به الدين، وكان اللبنة، وكان خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، الذين أثنى الله عليهم في كتابه الكريم الخالد إلى يوم الدين، لإيمانهم بالله، وتصديقهم لنبيه، وعلو منزلتهم في ذلك، وسَبْقِهم، ونُصْرَتِهم، وجهادهم بالأموال والأنفس، فغفر الله لهم ورحمهم، ورضي عنهم، ورضوا عنه، وذلك لمن خَشِيَ ربه، وبعد:

فقد يكون من المفيد ونحن نقدم لأحد أصحاب رسول الله ﷺ وقادته العظام، أن نأتي على ذكر بعض ما ورد في القرآن والسنة من صفاتهم وخصائصهم وجهادهم، لندرك موقع هذا الجيل الرباني القدوة، الذي تربّى على عين النبوة وتسديد الوحي، فكانت أُمَّتُه خيرَ أمة أُخْرِجَتْ للناس، وكان الجيل المعيار، والجيل القدوة، وقد شهد له الرسول ﷺ بأنه خير القرون، لِمَا تَمَتَّعَ به من المجاهدة والجهاد، والخصائص والصفات، التي تتمثل قيم الإسلام، وتثير الاقتداء.

قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

(التوبة: ٨٨-٨٩)

وقال عز وجل:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

(التوبة: ١١٧).

وقال عز من قائل: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) ﴾ (الفتح: ١٨-١٩)

وقال تعالىٰ:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾

(الحشر: ٨-٩).

وقال تعالىٰ:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ
فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ
عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

(الفتح: ٢٩).

وقال رسول الله ﷺ: **«خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الذين يَلُونَهم، ثُمَّ الذين يَلُونهم»** (رواه البُخاري).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تَسُبُّوا أصحابِي، فلو أنَّ أحَدَكُم أنفقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه»** (رواه البخاري).

وبعد:

فهذا كتاب الأمة الحادي والخمسين: (عمرو بن العاص رضي الله عنه .. القائد المسلم .. والسفير الأمين)، للواء الركن محمود شِيت خَطَّاب، في سلسلة «كتاب الأمة»، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، مساهمة في إعادة البناء الثقافي وتحقيق الوعي الحضاري، وإخراج الأمة المسلمة، واسترداد دورها العالمي، وإحياء التزامها ووعيها برسالتها الإنسانية،

التي كانت الغاية منها إلحاق الرحمة بالعالمين، استجابة لقوله تعالىٰ:
﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

واسترداد دور الأمة العالمي، وإحياء التزامها برسالتها، وإعادة بناء خيريتها، وتحقيق إخراجها الجديد للناس، لا يتأتى إلا بتلمس ظروف وشروط ميلادها الأول، أو بتعبير أدق: إخراجها الأول، وامتلاك القدرة على التحقق بالمرجعية، وخصائص خير القرون، وعلى الأخص مرحلة السيرة وجيل الصحابة، الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، ومن ثم التوغل في التاريخ العام للأمم، والاهتداء خاصة بالنماذج التي عرض لها القرآن الكريم فيما اصطلح عليه بالقصص القرآني، والمسيرة التاريخية للأمة المسلمة، والإصابات التي لحقت بها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، وتحديد مواطن الخلل وأسبابه، في ضوء السنن الإلهية المطردة، وأقدار الله تعالى في السقوط والنهوض.

ولعل الفترة أو المرحلة الأحق بالبحث والدراسة والتحليل باستمرار، هي مرحلة السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وحقبة خير القرون، لأنها تُصوِّب المسار، وتمثل المعيار والمرجعية، وتشكل نقطة الانطلاق، وتحقق الارتكاز الحضاري، وتوضح الملامح والقسمات المميزة للشخصية الحضارية الإسلامية التاريخية، كما تمثل البعد الإنساني والعالمي للرسالة الإسلامية، والفترة الأمينة والمأمونة والسابقة، لتحويل المبادئ إلى برامج، والقيم إلى خطط، والفكر إلى فعل،

والنظرية إلى تطبيق، وإدراك مقاصد الدين، والانطلاق في الاجتهاد، والحوار، والمشاورة، والمفاكرة، والمناظرة، إلى الآفاق والأبعاد المستقبلية، التي تتلاءم مع خلود الإسلام ومرونته، وقدرته على العطاء في كل زمان ومكان.. فتجربة هذا الجيل الرباني، واجتهادهم، وفعلهم، وتنزيلهم للقيم على الواقع، جزء من خلود هذا الدين، ووسائل إيضاح معينة وخالدة لكيفية التعامل مع النصوص في الكتاب والسنة، في الظروف والأحوال المختلفة.

وقد تكون مشكلة الكثير ممن يدَّعون التأسي بهذا الجيل الفريد اليوم، هي في الانحباس ضمن أطر الأشكال، التي هي أقرب ما تكون إلى المحاكاة، والغفلة عن المقاصد الشرعية، وتأسيس الفقه المطلوب للواقع في ضوء ذلك الفهم وتلك المرجعية، ذلك أن التقليد الذي يعني المحاكاة والببغائية، غير الاتباع الذي يعني العلم والإحاطة وإدراك مناط الحكم ومقاصده.. إن الانحباس ضمن الأشكال، أو المحاكاة للمبادئ، بعيداً عن النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، بمقدور حتى الأطفال، ويمكن أن تعتبر من أدنى وظائف العقل، إن كان للعقل دَخْلٌ في ذلك، أما النفاذ إلى المعاني والمقاصد وبلوغ الرشد، فهي الإشكالية التي نعاني من غيابها اليوم.

وأعتقد أنه من الأهمية بمكان، تحرير المقاصد والمعاني من قيود الأشخاص، والزمان والمكان، وأسباب النزول والورود، ومن ثم توليد الرؤى وتحقيق الاجتهاد في ضوء ذلك، وتنزيله على الواقع، وتقويمه به،

ذلك أن العجز عن التجريد، وتجاوز الصورة إلى الحقيقة، والشكل إلى المضامين والمقاصد، يورث العقم في التوليد والامتداد.. فحصر البطولة في نطاق البطل، والكرم في نطاق الكريم، والتقوى في إطار التقي، والإيثار في إطار المؤثر، وعدم تجريدها وجعلها صفة وإمكانية بمقدور الجميع الوصول إليها، سوف يجعل حاجزاً نفسياً وجداراً سميكاً، لا يمكنُ أن نَظْهَرَهُ في التأسي بجيل خير القرون.. ولا أدري، كيف يتحقق معنى الخلود ويمتد، ويمتلك الإسلام الإنتاج والعطاء والبناء في كل زمان ومكان، إذا كانت المعاني والخصائص المطلوبة، محبوسة ومرهونة في إطار الجيل الأول، دون إمكانية ذلك لسواه؟! وكيف يمكن أن نحقق بطولات إذا كانت البطولة محصورة في نطاق بطل لا تتعداه، الأمر الذي سوف يجعلنا عاجزين عن أن نرنو إليها؟

لذلك نرى أن المتأمل في الرسالة والحضارة الإسلامية، سوف يتحقق أنها على عكس سائر الحضارات الأخرى، السائد منها والبائد، عَظَّمَت المعاني، عَظَّمَت البطولة، لتكون مجالاً للتنافس وتناول الجميع، ولم تعظم البطل إلا بمقدار ما يمنحها ذلك من إمكانية التطبيق والتجسيد بالواقع، وتحويلها من المثال والخيال إلى الحقيقة والواقع المعيش.

لذلك أرى أن الذين يحاولون اقتفاء آثار السلف، أو بعبارة أدق آثار الصحابة، ويقتصرون على الأشكال، وطرائق الممارسات، دون محاولة النفاذ إلى الفقه والمضمون، ويخادعون أنفسهم أنهم على طريق التدين السليم، بحاجة إلى المراجعة وإعادة النظر، ذلك أنهم امتلكوا

الأشكال، وافتقدوا الأعمال، فأصبحوا عبئًا على منهج الصحابة والسلف، وحاجزاً دون امتلاك القدرة على التعامل الصحيح مع خصائص جيل خير القرون، وعبئًا على أنفسهم أيضًا، لعجزهم عن التغيير والإنجاز المأمول.

وكنتُ أشرتُ في كتاباتٍ سابقةٍ إلى أهميةِ استقراء وتجريد الخصائص والصفات والمعاني، التي جعلت من جيل الصحابة خيرَ القرون، والتي جعلت منه معياراً للأجيال، وأنموذجًا للإنجاز: خصائص الخيرية، وصفات العظمة، لينعكس ذلك على مناهجنا في التعليم والإعلام والتربية، وكل وسائل التشكيل الثقافي، وبذلك نتحول من الاقتصار على الفخر والاعتزاز، إلى مرحلة الإنجاز والتأسي العملي الذي يقود إلى تغيير الحال، أي لابد من جدولة الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، ومن ثم وضع المناهج التربوية والثقافية، الموصلة إلى الإنتاج المأمول، ذلك أن قول الرسول ﷺ: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**...الخ»، لابد أن يستدعي الاستفهام الكبير: ما هي الخصائص والصفات، التي بها كانت الخيرية، وكيف يمكن تلمسها، والاقتراب ما أمكن من هذا الجيل الرباني، ليمتد الخلود للرسالة، والإنتاج للجيل المأمول؟ وإلا لكان إخبار الرسول ﷺ ليس له مدلول تطبيقي في حياة المسلمين، خاصة وأن القرآن الكريم قَدَّم الأنموذج، ونَصَّ على بعض الخصائص والصفات، التي استحق بها جيل الصحابة خيرية القرون جميعها.

ولذلك كانت دراسة السير والمغازي وتعلمها، كجانب عملي تطبيقي، يعتبر موازيًا ومكملاً لدراسة السورة من القرآن، لتعلم العلم وتعلم العمل جميعًا.. يقول عليُّ بن الحسين رضي الله عنه: «كنا نعلم مغازي النبي ﷺ، كما نعلم السورة من القرآن».. وكان الإمام الزهري يقول: «في علم المغازي، علم الآخرة والدنيا» (البداية والنهاية، ٣/٢٤٢).

وهنا قضية لابد من التوقف عندها ولو قليلاً، وهي أن للصحابة الكرام رضي الله عنهم، موقعًا متميزًا في مسيرة الإنسانية التاريخية، بل في مسيرة النبوة وصَحْبها وركْبها الممتد، فشأنُهُم ليسَ كَشأنِ غيرهِم، وعمَلُهُم لَمْ يُدَانِهِ أحدٌ ممنْ سَبَقَهُمْ، وَلَنْ يَلْحَقَ بِهِ أَحَدٌ ممنْ جَاءَ بَعْدَهُم.

لقد كانوا معجزة خالدة من معجزات الإسلام، ومعيارًا لكل جيل في كل زمان ومكان.

ولنحاول فتح بعض النوافذ، التي تؤكد ذلك وتُعَزِّزُه:

فلقد قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، ومن أكبر أنبيائهم وأعظمهم شأنًا: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ (المائدة:٢٢-٢٥).

فإذا قابلنا هذا الكلام اليوم بما قاله الصحابة يوم بدر: «والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون»، أدركنا تميز هذا الجيل في تاريخ النبوة الطويل.

ونقدم أنموذجًا آخر من موقف حواريّ عيسى عليه السلام، وهم خُلّصُهُ وأنصارُه وناصِرُوه، ومع ذلك فقد كانوا غير عارفين حق المعرفة لربهم، لذلك كانوا مترددين في الالتفاف حوله، والتضحية في سبيل دينه وشريعته، يقول تعالىٰ حاكيًا قصتهم: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة:١١٢-١١٤).

فإذا قابلنا ذلك بموقف الصحابة رضي الله عنهم، بعد العودة من رحلة الإسراء -وقد كانت معجزةً عَصِيَّةً علىٰ العقل- والذي لَخَّصَه موقفُ أبي بكر رضي الله عنه، بقوله: «إن كان قال، فقد صدق»، أدْرَكْنا موقعَ هذا الجيلِ الفريدِ في تاريخ النبوات.

بذلك وغيره كثير، ندرك موقع جيل الصحابة رضي الله عنهم، وندرك بعض أبعاد الخيرية، التي شهد بها الرسول ﷺ لهذا الجيل.

ولما كان لجيل الصحابة هذه المكانة الفريدة من الخيرية، وهذا التميز في تاريخ البشرية بشكل عام، وفي تاريخ النبوة بشكل خاص، وكانوا الجيل الذي تجسَّدَت الرسالة في حياتهم، وكانوا الجيل الذي سوف يبقىٰ يمثل أنموذج التأسي، وأنهم الجيل الذي رضي الله عنه بنص القرآن: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ووصلوا إلى مرحلة من الرِّضىٰ والالتزام والانضباط، والإذعان والاطمئنان إلى ما هم عليه من الخير، فوصفهم القرآن بقوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

لقد وصفَ الرسولُ ﷺ موقعهم بالنسبة للأمة، بقوله: **«النجومُ أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبتِ النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أمنة**

لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي فإذا ذهبَ أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون» (رواه مسلم).

وأعتقد أن الدلالة واضحة جداً في وصف الرسول ﷺ لجيل الصحابة: فإن ذهابَ النجوم يعني اختلال نظام الكون، وتَوَقُّف الحياة الدنيا.. وإذا غابت سنة الرسول ﷺ، ومعرفة الوحي، انتشرت البدعةُ، واختلتْ مسيرةُ الحياة، وعَمَّتِ الفوضىٰ، وضلَّ الرأي.. وإذا غُيِّبَ جيلُ الصحابةِ، افْتَقَدَتِ الأمةُ المرجعية، واهتزَ الارتكازُ الحضاري، واعتلَّ ميزانُ التطبيق، ودخلتِ الأمةُ في التنازعِ والحيرةِ، والارتباك والفشل، والتبعثر، وعواصف الأهواء.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على عدالة الصحابة في الرواية، ونقل الحديث.. والعدالة لا تعني العصمة من الخطأ بحال من الأحوال، قال الخطيب في الكفاية: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ إلى تعديل أحد من الخلق.. فهم على هذه الصفة إلى أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط عدالته، وقد برَّأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنده.

على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله شيء مما ذكرنا، لأوجبت الحالُ التي كانوا عليها، من الهجرة والجهاد، والنُّصرة، وبذل المُهَج والأموال، وقتل الآباء والأولاء، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان

واليقين، القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم أفضل من المعدلين والمزكين، الذين يجيئون من بعدهم إلى أبد الآبدين» (الكفاية، ص٩٣-٩٦).

يقول ابن تيمية، معقبًا علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

«والرِّضا من الله صفة قديمة، فلا يرضىٰ إلا عن عبدٍ علمَ أنه يوافيه علىٰ موجبات الرضا -ومن رَضِيَ الله عنه لم يسخطْ عليه أبدًا- فكل من أخبر اللهُ عنه أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه، وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك بما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك» (الصارم المسلول، ص٥٧٢-٥٧٣، طبعة دار الكتب العلمية).

ويقول ابن حزم رحمه الله: «فمَن أخبرَنا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحلُّ لأحدٍ التوقُّفُ في أمرهم، أو الشك فيهم البتة» (الفصل في الملل والنِّحَل، ٤/١٤٨).

لذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كان منكم متاسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعْمَقَهَا علمًا، وأقلَّهَا تكلُّفًا، وأقْوَمَها هَدْيًا، وأحْسَنَها حالاً.. قومًا اختارهم الله لصُحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فَضْلَهم، واتبعوهم

في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم» (جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر).

لذلك ومن هنا، ندرك عِظَمَ المخاطرِ والآثارِ المترتبةِ على النيل من هذا الجيل، الذي يمثل قاعدة البناء، وأنموذج تنزيل الإسلام على الواقع، ومحل التأسي، والمرتكز الحضاري.

وليس ذلك بالنسبة لعصر، أو قوم، أو جيل، أو موضع، أو وضع اجتماعي، وإنما هم جيل التأسي الخالد، المجرد عن حدود الزمان والمكان، إنهم جيل التأسي العالمي والإنساني، لأنهم حَمَلَة رسالة عالمية إنسانية خالدة، ونماذج تطبيقها، وأوعية حَمْلها ونَقْلها، والقاعدة البشرية الأولى، التي قامت بها: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام:١٢٤).

أما قضية العِصمة عن الخطأ، فالصحابة لا عِصْمَة لهم، لأنهم بَشَرٌ يجري عليهم الخطأ والصواب، بكل ما في البشرية من أبعاد، وبكل ما فيها من نوازع، ودوافع، وغرائز، وخصائص، وتفاوت في أقدار التدين، وفوارق فردية في النظر والاجتهاد، لذلك فلن يتأتى لأحد أن يَدَّعي العِصْمَة في القول أو العمل، أو يمنحهم خصائص وصفات الملائكة، الذين جُبِلوا على الخير وحده، وسُلِبُوا حرية الاختيار بين الخير والشر، ولم يكن للشرِّ سبيلاً إليهم.

لقد عَمِلَ بعض الصحابة، فأخطأ في حياة الرسول ﷺ فعاتبه القرآن، واجتهدوا فأصابوا وأخطأوا، ولا نزال نتخيَّر من آرائهم الفقهية الاجتهادية، في حالة اختلافهم، حيث إنهم لم يختلفوا في قضايا

العقيدة.. فكم من مرة تَخَلّىٰ أبو بكر رضي الله عنه، عن رأيه.. وكم من مرةٍ تَخَلّىٰ عُمر رضي الله عنه، عن رأيه، و«أصابت امرأة وأخطأ عُمَر».. وكم قال عثمان رضي الله عنه: «لولا عَليٌّ لهلك عثمان»، حين أراد رجم التي ولدت لستة أشهر.

ولو لم يكونوا بَشَرًا، لما استحقوا أن يكون محلاً للتأسي، وأنموذجًا يُحتذى لتنزيل الإسلام على الواقع، وتحقيق المعجزة الإسلامية من خلال عزمات البشر.. وقد نحتاج هنا إلى إعادة التذكير بقولة الإمام مالك رحمه الله، إمام دار الهجرة، بأن: «كُل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرَدُّ إلا صاحب هذا القَبْر»، يعني الرسول ﷺ، لأنه معصومٌ بالنبوة، مُسدَّدٌ بالوحي، ومؤيدٌ به، أما الصحابةُ فَبَشَرٌ يجري عليهم الخطأُ والصوابُ، عاشوا حياة البشر بكل ما فيها من أبعاد وحالات، حتى لنستطيع القول: بأن بشريتهم، وما نتج عنها من ممارسات واجتهادات وفوارق فردية، جاءت مستوعبة للحالات التي تمر بها الأمة الخاتمة، حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ليشكل جيل هذا القرن الذي وصف بالخيرية، المعيارية في موقع التأسي ومرجعية التطبيق.. اختلفوا واتفقوا، وتعارضوا وتوافقوا، ووصلت القناعات والاجتهادات في بعض الحالات مرحلة الاحتراب، بل احتربوا فعلاً، دفاعًا عما يعتقدونه من الحق.

لقد جمعت حياتهم أصول الحالات التي تمر بها البشرية جميعًا، والتي يمكن أن تعرض للمجتمعات البشرية، وكيفية التعامل معها، من خلال ما يؤمنون به من قيم، وشهد لهم الرسول ﷺ بالخيرية، لتشكل حياتُهم رؤية لكل السائرين على الطريق.

وقد يكون من المفيد أن نعرض لبعض النماذج التي ترسم لنا خطًا بيانيًا، لكينونتهم البشرية، ولمستوى أقدار التدين، وطرائق الانفعال البشري بقيم الوحي.. لكن لابد أن ننبه ابتداءً إلى قضية أساسية: وهي أن الصحابة أوَّابون، تَوَّابُون، قد يقعون في الهوى والخطأ والضعف، وهذا شأن بشري، لكن سرعان ما يعودون إلى الحق ويلتزمونه.

فعندما تُوفِّيَ الرسولُ ﷺ، اشتدت الرزيَّةُ بموته، وعَظُمَ الخَطْبُ، وجَلَّ الأمرُ، وأصيب المسلمون بنبيهم، ولما سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنبأ وفاته، أنكر ذلك، وقال: إنه لم يمت، وإنه سيعود كما عاد موسىٰ لقومه، وقام يخطبُ الناسَ، ويتوعَّدُ من قال: مات، بالقتل والقطع، حتىٰ خرجَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ليقيم الأوَد، ويصدعَ بالحقِّ، ويردَّ الناسَ إلىٰ رشدهم وصوابهم، وعُمَرُ يُكلِّمُ الناسَ، فقال له أبو بكرٍ: اجلس يا عمر! فأبىٰ عُمَرُ أن يجلسَ، فَتَشَهَّد أبو بكرٍ، فأقبل الناسُ عليه، فقال: «أمَّا بَعْدُ، مَن كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّداً فإنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، ومَن كانَ يعبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حَيٌّ لا يموت، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: فوالله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أنَّ اللهَ أنزلَ هذه الآيةَ حتىٰ تلاها أبو بكرٍ، فَتَلَقَّاها منه الناسُ كُلُّهُم، فما

أَسْمَعُ بَشَرًا من الناسِ إلا يتلوها».. ويقول ابن المسيب: قال عمر: «واللهِ ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ تلاها، فَعَقِرْتُ -أي دهشتُ- حتَّىٰ ما تَقلني رِجْلاي، وحتّىٰ هويتُ إلىٰ الأرضِ» (رواه البخاري، وأحمد).

وتخلّف وتثاقل عن الذهاب إلى غزوة تبوك مع رسول الله ﷺ الصحابة الثلاثة (كعب بن مالك، ومُرَارة بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفي) رضي الله عنهم، وتوبتهم معروفة في مظانها من كتب السير والحديث، ولقد سجل القرآنُ هذا التخلف، لأنه حالة بشرية متكررة، ليكون خالداً على الدهر.

كما لحق به ﷺ أبو خَيْثَمَة، بعد أن تخلّف وجلس إلى نسائه وطعامه ومَائه البارد، فأدركتْهُ حالةٌ يقظة وصحوة ضمير، فاستشعر تقصيره، ولاَمَ نَفْسَهُ، كيف يكون بين نسائه وطعامه في ظلٍّ ظليل، والرسول ﷺ يسير على رمال الصحراء اللاهبة، إلى منازلة الروم في تبوك؟ فما كان منه إلا أن ركب فرسه، والتحق بالرَّكْبِ، فلما رأىٰ الرسولُ ﷺ الغبار يثور من بعيدٍ، قال: «كُنْ أبا خَيْثَمَةَ»، فكان القادم المجاهد الآيب، التائب، أبا خيثمة، رضي الله عنه (متفق عليه).

والصحابي ماعز رضي الله عنه وقع في الزنا، وأحس بعُقدة الذنب، ومخالفة الشرع، فأسرع للتطهر، والإقرار على نفسه، فقال الرسول ﷺ عنه، بعد إنفاذ العقوبة، وإقامة الحد: «لقدْ تَابَ تَوبَةً لو قُسمَتْ علىٰ أهْلِ الأرضِ لَوَسِعَتْهُم» (رواه مسلم).

وأسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ وابْنُ حِبِّهِ، توسَّط في حَدٍّ

من حُدود الله، توسط لرفع عقوبة القطع عن المرأة المخزومية التي سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فلما تلوَّن وجهُ الرسولِ ﷺ من فَعْلَته، وقال له مستنكرًا: «أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللهِ؟!» قال أسامة رضي الله عنه: «استغفر لي يا رسولَ الله» (متفق عليه).

وامرأة من جُهينة، أَتَت رسولَ الله ﷺ وهي حُبْلىٰ من الزنىٰ، فقالت: يا رسولَ الله! أصبتُ حَدًّا فأَقِمْهُ عليَّ، فلمَّا أُقيم عليها الحَدُّ، صلَّىٰ عليها النبيُّ ﷺ، فقال له عُمَر: «تُصَلِّي عليها يا رسولَ الله وقد زَنَت؟» قال: «لقد تَابت تَوبةً لو قُسِمَتْ بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم» (رواه مسلم).

والمخزومية سَرَقَتْ، والغامدية زَنَتْ، لكن قَدَّرَ اللهُ ذلك، لأنه من طبيعة البشر، وحتى يكون وسيلة إيضاح، ومناسبات لِتَنَزُّلِ الأحكامِ وكيفيات التطبيق.

واجتهد سيفُ الله خالدُ بن الوليد، رضي الله عنه، وعمل فأخطأ، فتبرأ الرسولُ ﷺ من عمله.. فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: بعثَ النبيُّ ﷺ خالدَ بن الوليد إلى بَنِي جَذِيمَة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا: أَسْلَمْنَا، فجعلوا يقولون: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا، فجعلَ خالد يقتُلُ منهم ويَأْسر، ودَفَعَ إلىٰ كلِّ واحد منا أسيرَهُ، حَتَّىٰ إذا كان يومٌ، أمر خالدٌ أن يقْتُلَ كُلُّ رجلٍ منَّا أسيرَهُ،فقلتُ: والله لا أقتلُ أسيري، ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسيرَهُ، حتىٰ قَدمْنَا على النبي ﷺ فذكرناه، فَرَفَعَ النبي ﷺ يديه، فقال: «اللهمَّ إنِّي أَبْرأُ إليكَ مما صَنَعَ خالد» مرتين (رواه البخاري).

ولا نزال نذكر موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صُلح الحُديبية، الذي بناه على اجتهاده في رؤية النتائج القريبة، وغَابَتْ عنه العواقبُ والمآلات، عندما قال للرسول ﷺ مستنكرًا: أَلَسْتَ نَبِيَّ الله حقًّا؟ ألسنا على الحقِّ وعَدُوُّنا على الباطلِ؟ فَلِمَ نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟ (رواه البخاري) ثم لما تبيَّن له الحقُّ، بقي يتوبُ ويعتذر إلىٰ الله بقية حياتِه، من مَوْقِفِه يومَ الحُدَيْبِية، الذي أسماه الله الفتح المبين، يقول عمر رضي الله عنه: «مازلتُ أصومُ وأُصَلِّي وأتصدَّقُ وأَعْتِقُ مِنَ الذي صنعتُ، مخافةَ كلامي، الذي تَكَلَّمْتُ به يومئذ، حتى رجوتُ أن يكون خيراً» (رواه أحمد).

وهؤلاءِ البدريون، وهم من أكرمِ خَلْقِ الله على الله، يجادلون في الحقِّ بعدما تبين، ويَكْرَهُون الخروج للجهاد، مع رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الأنفال: ٥).

ويختلفون في قِسْمَةِ الغنائم يومَ بدرٍ، ويروي عُبادة بن الصامت، رضي الله عنه، ذلك فيقول: اختلفنا في غنائم بدرٍ حتى كادت تسوء أخلاقُنَا، فَنَزَعَهَا اللهُ منَّا، وَجَعَلَ أمرَ قِسْمَتِها للهِ والرسول، ونَزَلَت الآياتُ

لتعيـد إصـــلاح ما فَسَـدَ من ذاتِ البَيْن، قـال تعـالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤ ﴾ (الأنفال: ١-٤).

وقصة الصحابي حاطب بن أبي بَلْتَعة رضي الله عنه، التي نَزَلَ فيها قُرآنٌ خالدٌ يُتلىٰ علىٰ الدهر، وهو من البدريين، معروفة في مظانها من كتب السيرة والتفسير، عندما ضَعُفَ أمام حفظ العهد، وأراد عُمَرُ رضي الله عنه أن يَقتُلَهُ جزاء فعلته، فنهاه الرسولُ ﷺ قائلاً: **«لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلىٰ أهلِ بدرٍ فقالَ اعمَلُوا ما شِئتُمْ فقد غَفَرْتُ لكم»** (رواه الجماعة إلا ابن ماجه).

وهكذا فالنماذج كثيرة ويصعبُ استقصاؤها، والآيات الخالدة في القرآن تقرر ذلك وتحكيه، ليكون وسيلة إيضاح، ودليل عمل على الزمن الممتد.

لذلك أرىٰ أن الذين يعتقدون أن نزع الصفة البشرية بكل أبعادها عن جيل الصحابة، ظنًا منهم أن هذا نوع من التقدير والتعظيم والإجلال، ويدّعون لهم العصمة عن الخطأ، إنما يساهمون مساهمة سلبية في القطيعة المعرفية والسلوكية والتربوية، والمحاصرة لامتداد التأسي بهذا الجيل.. إنهم يحنطون الإسلام، ويطفئون شُعلتَهُ، ويميتون فاعليته، ويلغون خلوده وامتداده، ويدخلون به إلى المتاحف والمعارض، بدل المساهمة في تفعيله، وتقديم النماذج التي تثير الاقتداء، وتدلل على إمكانية التنزيل للقيم على الواقع، وتبين أن رسالة الإسلام واقعية، تتعامل مع الناس من خلال الحالات التي هم عليها، وترتقي بهم، وليست خياليةً أو مثاليةً، عَصِيَّةً عن التطبيق.. ولا أدري كيف يمكن أن يشكل محلاً لتأسي البشر، الذي يجري عليه الخطأ والزلل والصواب، مَن هو معصوم، خارج عن طبيعة البشر، وضعف البشر، وخصائص البشر؟!

إن عِظَم الصحابة وقدرهم، ببشريتهم.. وإن عظمةَ الإسلامِ، ومعجزة الإسلام (عظمة الرسالة والرسول)، بقدرته على هذا الإنتاج، وعلى صناعة هذه النماذج، التي استطاعت أن تُجسِّد التعاليم الإسلامية في الأرض، وتتحرك بها، من خلال خصائصها وصفاتها كبشر، له غرائزه وأشواقه.. وقدَّم الإسلامُ الدليل على أن معجزته الحقيقية، أنه تحقق من خلال عزمات البشر، وأن الخلود، من بعض

الوجوه: هو في وجود هذه الإمكانية، والقدرة على الإنتاج في كل زمان ومكان، طالما أن القيم موجودة في الكتاب والسنة، والأنموذج التطبيقي موجود في السيرة، لأن السيرة في نهاية المطاف، هي حركة جيل الصحابة، وإنجازه بقيادة النبوة.

وهُنا قضية أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها قليلاً، أو على الأقل إثارتها وفتح ملفها، لعله يُغْرِي مستقبلاً بعض القادرين أو الباحثين بالمتابعة، وهي أن جيل الصحابة رضي الله عنهم، هم لَبِنَاتُ البناء، ووسائلُ الاكتمال للدين، والوصولُ به إلى مرحلة الكمال، حيث انتهت إليهم حياة الأنبياء، وأصحاب النبوات، وصُنِعَتْ بهم الصورةُ الأخيرةُ والخاتمة للنبوة.. كانوا هم محل التلقّي لآيات الكتاب، وميدان الفعل والتجريب، ووسائل إيضاح للتطبيق.. حياتهم وتصرفاتهم هي أسباب النزول للآيات، وأسباب الورود للأحاديث، لذلك نرى أن الكثير من الآيات والأحاديث سجلاً لحياتهم، وبيانًا لخصائصهم، وتصويبًا أو إقراراً لممارساتهم، واستنزالاً واستدعاءً لبعض الأحكام الشرعية، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: «اللهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخَمْرِ بيانًا شافيًا، فإنها مفسدةٌ للعقلِ، مضيعةٌ للمال» (رواه أحمد).

هم حلقة الاتصال بين الفكر والفعل، بين المبادئ والبرامج، بين التكاليف الإلهية والفعل البشري، ولعلنا نقول: إن آيات القرآن الكريم،

وأحاديث الرسول ﷺ، سجلاً لحياتهم، وتقويمًا لمسالكهم، وإرشادًا لوجهتهم، ليكون أنموذج الفعل، وسبيل الاقتداء، وميدان التطبيق.. ولا شك عندي أن الأمر في البداية أو النهاية واقع في علم الله، وأن الله أعلم حيثُ يجعلُ رسالَتَهُ، ومَنْ هم المؤهلون ليكونوا قاعدة الرسالة الأولى، وامتلاك الخصائص والصفات التي تمكنهم من الامتداد بها ونقلها، وأن أي محاولة للتشكيك في عدالتهم، وهدم مرحلة خير القرون، تعني تطرق الشك إلى الرسالة، وأوعية نقلها، والحط من قَدْر الرسول المُرَبِّي ﷺ.

وبإمكاننا القول: إنهم الجيل الذي استدعىٰ الوحي بحركته، وتحقَّقَ لهم الانفعالُ به، والتحركُ وِفْقَ مَقَاصدِهِ.. إنهم الجيلُ الذي يُمثِّلُ أَجِنَّةَ الدعوةِ الأولىٰ، وشَبَابَهَا، ورِجَالَهَا، وَدَعْوَتَهَا، وَدَوْلَتَهَا، وفَرْدَهَا، ومُجْتَمَعَهَا، جعلَ اللهُ نَصْرَهُم لها موازيًا لتأييدهِ ونصره، فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٢)، لأنهم في المحصلة النهائية، أوعيةُ نصرِ اللهِ ووسائلُ تحقيقه.

فاللهُ أيَّدَ الرسولَ بنصرِهِ، كما أيَّدَهُ بهداية الصحابة إلى الإيمان بالله ورسوله، الأمر الذي دفعهم للجهاد وتحقيق نصر الله، من خلال حركة البشر المؤمنين.. فأي جيل أكرم من هذا الجيل؟ إنه جيلُ الخلودِ، لأنه جسد الرسالة الخاتمة الخالدة.. وجيلُ الاكتمال، لأنه بهم اكتمل التشريعُ.. وجيلُ الكمالِ، لأنهم اللَّبِنَاتُ التي اكتملَ بها بناءُ النُّبوة التاريخي.

لكن المشكلة كل المشكلة، قد تكون فيما نعانيه -منذ توقف العقل والاجتهاد والامتداد المعرفي- من الارتهان الثقافي، والاستلاب الحضاري، والانشطار التربوي، فنكتب عن جيل الصحابة بشكل عام، أو عن أحد الأصحاب، أو أية دراسة أخرى، بأدوات وأنظمة معرفية ليست من إبداعنا، ولا من امتدادنا المعرفي، وليست منطلقة من قِيَمِنَا.. فالكثيرُ منا يكتبُ وهو مطبوع بثقافة فصل الدين عن الحياة، التي شكلت المناخَ الثقافي لأمتنا خلال حقبة من الزمن، الأمر الذي يتطلب الكثير من الجهد للانعتاق منه.. فإذا جاءَ أحَدُنا يتكلَّمُ عن خصائص وصفات بعض الصحابة وعبادتهم وإيمانهم، أحسنَ الكتابةَ، لكن إذا طوىٰ هذه الصفحةَ، التي تخص التدين -بالمفهوم العلماني- وتحوَّل للكلام عن ممارساتهم السياسية، رسم لهم صورة كاريكاتورية من المكر والكذب والخداع والغش ونقض العهود، قد لا تليق حتى بالإنسان العادي.

ذلك أن المشكلة -فيما نرىٰ- هي في المنهج الذي يرتهننا، ويمزِّق رؤيتَنَا، ويُعَلْمِن تفكيرَنَا، فنقع في مقاصده وأدواته، حتى ولو حاولنا في كثير من الأحيان رفع شعار مناقضته، والتنكر له.

أما بعض الباحثين، وتلامذتهم في الداخل الإسلامي، الذين تخصصوا بالنقاط السود في تاريخنا، وعلى الأخص عصر الصحابة، فلم يبصروا إلا ما تخصَّصُوا به، وما تهوى أنفسهم، وحاولوا توهين

هذا الجيل، والحطّ من قَدْرِهِ وأدائه، والادعاء بأنه جيل الفتن، والاغتيالات، والحروب، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، فمقاصدهم قطع الأمة عن جذورها وتشويه شخصيتها التاريخية، وتركها في مَهَبِّ الرياح! فالغاية من طروحاتهم لم تعد خافية على أحد.

ومن هنا نُدرك الأبعاد الحقيقية لنهي الرسول ﷺ عن سَبِّ الصحابة بقوله: **«لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي»** (رواه البخاري).

ونُدرك مخاطر مَن فهموا من ذلك العصمة لهم عن الخطأ، ورفعهم فوق مستوى البشر.. وندرك الخلط الحاصل عند مَنْ فَهِمُوا أن البحثَ في اجتهاد الصحابة، وترجيحَ بعض الاجتهادات، ورد الأخرى، هو من السبِّ المنهي عنه.. فكيف يكون ذلك، وقد خطّأ بعضهم بعضاً، وخطّأ بعضُهم نفسه، وتراجع عن اجتهاده؟! لذلك نقول: إن المشكلة في استخدام مناهج «الآخر» بالدرجة الأولىٰ، وغياب النظام المعرفي، الذي يأتي ثمرة للقيم والمبادئ الإسلامية.

وهنا أمر لابد من إيضاحه، وهو أننا بالإمكان أن نمتد بالرؤية الإسلامية، ونعديها إلى آفاق واجتهادات بحسب ظروف الزمان والمكان، لكن لا يجوز بحال من الأحوال أن تلغي هذه الاجتهادات، أو تَنْتَقِصَ ما اجتهده عمومُ الصحابة، لأنهم جيل المرجعية للفهم والتنزيل، كما أن القرآن والسنة هما محل المصدرية لتشريعات وأحكام هذا الدين.

ومن نعمة الله على هذه الأمة المسلمة -ولعل ذلك من ملامح خصائص الخلود والخاتمية- أن جعل لها من جيل الصحابة، جيلَ خير القرون، وأن الرسول ﷺ شهد له بأنه الجيل المعيار، ليكونوا جيل الشهادة على الناس، كما كان الرسولُ ﷺ شهيداً عليهم، ونهى عن سَبِّهِم، والنيل منهم، لتبقى خصائصُهم وصفاتُهم واجتهاداتهم، معالم هادية على الطريق الطويل لمسيرة الدعوة الإسلامية، وحركة الأمة الإسلامية، ويبقى فهمهم للتنزيل متميزاً، بسبب معاصرتهم له، وكونهم مادته وأدوات فعله وتنفيذه، وأوعية حِفْظِه ونَقْلِه، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيرُهُ، ما نَزَلَتْ آيةٌ مِنْ كتابِ الله، إلا وأنا أعلمُ فِيمَن نَزَلَتْ، وأينَ نَزَلَتْ». (أخرجه البخاري، وابن جرير الطبري في تفسيره واللفظ له).

إنهم جيل الخيرية، وحياتهم معالم مضيئة في بناء المرجعية، والفهم والتنزيل على الواقع، حتى يُحْمَى الجانبُ التطبيقي للقيم من الاجتهادات المعوجة، والانتحالات الباطلة، والتحريفات الجاهلة، والغلو في الدين، وحتى تكون ترجماتُهم وسِيَرُهم المنجم التربوي، والمَعِينُ الذي لا يَنْضُبُ لمناهجِ وسُبُلِ الارتقاء بالنشء إلى تحقيق مقاصد الدين، والتَحَلِّي بخصائص الخيرية والصعود نحو الكمال.

إن هذا الجيل يبقى هو القاعدةُ الصلبةُ للبناءِ المأمولِ، والأنموذجُ المُحْتَذَىٰ للتطبيقِ السليم، والمُرْتَكَزُ الحَضاري للانطلاقِ الصحيح،

والدليلُ العَمَلي لتحويلِ القيمِ إلى سلوكٍ وواقعٍ، والوسيلةُ المُعينَةُ لكيفيةِ التعاملِ مَعَ قيمِ الدينِ في الكتابِ والسنةِ من قِبَلِ البشرِ بكُلِّ ما يمرُّ به من أقدارِ التدين: صُعُودًا وهبوطًا، ذُنوبًا وتوبة، ضَعْفًا وقوة، سُمُوًا وتَقَهْقُرًا، اتباعًا واجتهاداً.

وفي هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة، أو في هذه الأزمنة الرديئة، إن صح التعبير -وقد وَصَفَ الله بعض الأيام بأنها نَحِسَات بسبب ما يقع فيها- والتي تجتاحنا فيها ثقافات السموم، والإفساد في الأرض، تحاول اقتلاعنا من جذورنا، وتوهين قِيَمِنا، والتشكيك بثوابتنا، والنيل من تاريخنا، وتجريح حِقبة الخيرية والمرجعية في مسيرتنا، يشتد اشتياقنا لطي مسافة الزمان والمكان، وتجاوز فترات العجز والتخاذل والوهن.. تشتد حاجتنا إلى تجديدِ العزيمة على الرشد، والانعتاقِ من مرحلة «القَصْعَة»، حيث تتداعى علينا الأُمَمُ، كَمَا تَدَاعَىٰ الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها، في محاولة للوصولِ إلى الينابيعِ الأولى في الكتاب والسنة، وأوعية الاغتراف منها، من جيل الصحابة، وأدلة التعامل معها، من سيرة أهل خير القرون.

في هذه الظروف الحرجة، يشتد اشتياقنا إلى اتِّباع أبي بكرٍ رضي الله عنه: «إنَّما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ مبتدعًا»، وإلى اجتهاد عمر رضي الله عنه، وإلى إيمان وحياء عثمان، وإلى حِكْمة علي، وإلى فقه ابن عباس، وابن مسعود، وإلى زهدِ أبي ذَرٍّ وانعتَاقِه من الجاهليـة، وإلى ثبـات عبد الله بن الزبير، وإلى حِنْكَة عمرو بن العاص، ومَشورة أم سلمة، وإدراك

أم المؤمنين خديجة لأبعاد النبوة، وطمأنة الرسول ﷺ بأنَّ الله لن يخزيه أبداً، وإلى شجاعة عائشة، وتَوبة ماعز، وموقف السَّعْدَيْن، وذكاء نعيم بن مسعود في غزوة الأحزاب، وقدرته في التعامل مع سنن المدافعة، وتوظيف التناقض، وتحقيق النصر على الأحزاب، و إلىٰ سياسة عمر بن عبد العزيز الذي عاد بالأمة إلى ممارسات الخلافة الراشدة.

في هذه الأيام، تشتد حاجتنا إلى إعادة بناء القاعدة الصلبة للتخلص من الهشاشة والرخاوة، وإعادة بناء المرجعية للتخلص من الضياع والضلال الثقافي، وتشتد حاجتنا أكثر فأكثر إلى الاقتداء والتأسي، لأن التأسي بهذا الجيل، يعني اكتشاف سبيل التربية والمنهج وعلم الطريق، الذي يحقق لنا الانتشال من الحال التي صرنا إليها، ويمكننا من التجاوز، ويحصننا من الإصابات، ويمنحنا قدرات إضافية للتحمل والثبات على الحق، ويقدم لنا رؤىً تمكننا من التعامل مع الواقع، والانسجام مع السنن، ومدافعة قَدَرٍ بقَدَرٍ، والعودة إلى الجادة والسبيل القويم على بصيرة وهدى.. وبعد:

فهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، عن شخصية أَحَدِ الصحابة الكرام، وقادة الفتح العظام، وسفراء النبوة الأمناء، رجل المهام والتعامل مع المآزق الكبرى، الذي جمع الإخلاص والصواب، وحسبنا في ذلك شهادة الرسول ﷺ له بقوله: **«أسْلَمَ الناسُ وآمنَ عمرو بن العاص»** (رواه أحمد)، حيث لم تَدَع هذه الشهادة استزادة لمستزيد، وقولة عمرو

رضي الله عنه: «والله ما عَدَلَ بي رسولُ الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمرٍ حَزَبَهُ منذ أَسْلَمْنَا».

حيث كان الرسول ﷺ يختاره دون غيره، للسفارات والمهمات الكبرى:

«يا عمرو خُذ عليك ثيابك وسلاحَك، ثم ائتني»، فأتيته، فقال: «إني أُريدُ أن أبْعَثَكَ على جيشٍ فيُسَلِّمُكَ اللهُ ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة». فقلتُ يا رسولَ الله: ما أسلمتُ من أجل المال، بل أسلمتُ رغبة في الإسلام. قال: **«يا عمرو! نِعِمَّا بالمالِ الصالحِ للمرءِ الصالح»** (أخرجه الإمام أحمد بسند صحيح).

وقد تكون المشكلة في دراساتنا التاريخية وسير الأعلام، أو الكثير منها، كما أسلفنا، أنها مرتهنة لمناهج وثقافات بعيدة عن قِيَمِنا وأصولِنا ومرجعيتنا، ونسقنا المعرفي، لذلك جاءت في معظمها -إلا مَن رَحِمَ الله- مطبوعة، بنظرات وفلسفات غريبة عن طبيعة هذا الدين، حيث توهم الكثيرُ من الباحثين أن تدينَ الإنسانِ وإيمانَهُ، لا يمنَعُهُ في مجال الحياة والسياسة، من المكر والدهاء والكذب والانتهازية، والوصولية والأثرة، لذلك تأتي الصورة أقرب ما تكون إلىٰ الشخصية الخرافية المتناقضة.. وبهذه الرؤية والثقافة الانشطارية، شُوِّهَتْ رموزُنا، وقرئت بأبجديات مخطئة وغريبة عن مناهجنا وقيمنا، وانتقيت روايات هالكة وضعيفة ومنحازة، فلم تزدنا تلك المعارف والدراسات إلا بعثرة وارتباكًا وحيرة، وحسبنا أن نورد ما أخرجه الإمام

أحمد رحمه الله بإسناد صحيح إلى محمد بن سيرين، قال: «هاجت الفتنُ، وأصحابُ رسول الله ﷺ عشرات الألوف، فلم يحضرْها منهم مائة، بل لم يبلغوا الثلاثين»، فأين هذا الواقع، وهذه الحقيقة مما ذهب إليه القصاصون، والمؤرخون غير المحققين، والمغرضون، من التهويل والتضخيم، واعتماد الروايات الضعيفة والهالكة للنيل من جيل القدوة؟!

وعلىٰ الرغمِ من وجودِ دراساتٍ مقدورةٍ في مجالِ التحقيقِ لموقفِ الصحابة، واعتمادِ موازين رجال الحديث في القبول والردِّ، إلاَّ أن هذه الدراسات لم تَصِل إلى مرحلة تكوين الثقافة التاصيلية والوثائقية المطلوبة.

ولعل من أبرز الشخصيات التي تعرَّضَت للتشويه والافتراءات الخاطئة، شخصية عمرو بن العاص، رضي الله عنه، الذي قال فيه الرسول ﷺ: «أسلمَ الناسُ وآمن عمرو بن العاص» (رواه أحمد).

وقد آثرنا في هذا الكتاب، أن نتجاوزَ الحديثَ عنِ الفتنِ، ومقتلِ سيدنا عثمانَ رضي الله عنه، لعدةِ أسبابٍ، لعل من أبرزها أن الرواياتِ التاريخيةَ لأخطرِ مرحلةٍ من حياتِنا المرجعية، لمْ تخضعْ لمعاييرِ المُحَدِّثين في الجرحِ والتعديل، والقَبُولِ والرَدِّ، مما يجعل الصورةَ الدقيقةَ غائبةً، الأمر الذي سوفَ يُحْدِثُ بعضَ الاضطرابِ في الرؤية والتشويه للصورة.

والله المستعان من قبلُ ومن بَعد.